صورة الممدوح بين
أبي تمام وابن خفاجة الأندلسي
دراسة تحليلية موازنة

إعداد الدكتور
يوسف محمد عزاز يوسف
مدرس الأدب والنقد
كلية اللغة العربية بالمنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

أحمدك اللهم حمدا يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك ، وأصلي وأسلم على عبدك ونبيك محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين.

وبعد ،،،

فالصورة في الشعر العربي هي ميدان التنافس بين الشعراء لأنها تحمل في طياتها عناصر بناء العمل الفني من اللفظة المنتقاة ، والعبارة الموحية، والخيال المحلق في سماوات الإبداع الفني، والفكرة التي يتخلق منها العمل، والعاطفة التي تحرك شعور القارئ وتجذب انتباهه لملاحقة الأعمال الفنية والتأثر بما تثيره في النفس الإنسانية من قيم الخير والحق والجمال.

وقد اخترت هذا الموضوع تحت عنوان "**صورة الممدوح بين أبي تمام وابن خفاجة الأندلسي دراسة تحليلية موازنة**" ولم أقصد ممدوحا بعينه وإنما أي ممدوح قصده الشاعر سواء أكان خليفة أم وزيرا أم قائدا أم كاتبا أم أي شخص صوره الشاعر بعدسته الاقطة .وأما المنهج الذي اعتمدت الدراسة عليه فيتمثل في المنهج التاريخي والنفسي والفني وقد أفادت الدراسة من هذه المناهج في تحليل صورة الممدوح ، والكشف عنها موضوعيا وفنيا من خلال الموازنة بين الشاعرين، **وقد اقتضت طبيعة الدراسة تقسيم هذا البحث إلى تمهيد وأربعة مباحث، وخاتمة وفهارس فنية. أما التمهيد** فقد تناولت فيه الحديث عن دوافع المدح بين الشاعرين. **وأما المباحث** فقد جاءت على النحو الآتي:

المبحث الأول: ملامح من حياة الشاعرين: أولا: أبو تمام. ثانيا: ابن خفاجة الأندلسي. **المبحث الثاني:** الصورة بين القدامى والمحدثين: أولا: الصورة عند القدامى. ثانيا: الصورة عند المحدثين. **المبحث الثالث:** صورة الممدوح بين أبي تمام وابن خفاجة، وجاءت في عدة محاور هي: أولا: صورة الممدوح

الكريم بين الشاعرين. ثانيا: صورة الممدوح الشجاع بين الشاعرين. ثالثا: صورة الممدوح الحسية والمعنوية بين الشاعرين. رابعا: صورة الممدوح بنصرة دين الله بين الشاعرين. **المبحث الرابع:** الموازنة بين الشاعرين: أولا: مصادر الصورة بينهما: أ . الطبيعة. ب . العلم والثقافة. ج . الدين والعقيدة الإسلامية. ثانيا: عناصر تشكيل الصورة بين الشاعرين: أ . التشبيه بين الشاعرين. ب . الاستعارة بين الشاعرين. ج . البديع بين الشاعرين.

وفي هذه الدراسة سنجد صورا للممدوح تدل على الشيم العربية والأخلاق المنبعثة من رحم الدين الإسلامي الحنيف، وقد تطورت حياة العرب عبر العصور الأدبية ولا سيما في العصر العباسي محل الدراسة لأنهم لبسوا زيا غير زيهم العربي وعاشوا في القصور عيشة مترفة وكذلك عاش العرب في الفردوس المفقود (الأندلس) ومع ذلك ظلت القيم العربية من الكرم والشجاعة والبأس والشدة وحماية الجار والدفاع عن ثغور الإسلام هي النبع الذي يرتشفون منه عاداتهم وشيمهم الحميدة .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

د/ يوسف محمد عزاز يوسف

تمهيد

دوافع المدح بين الشاعرين

كان أبو تمام الطائي متكسبا بالشعر فمدح ما يربو على خمسين شخصية، وغرضه من هذا المدح الحصول على المال؛ ولذا كسد سوق الشعراء لاستحواذه على عطايا الممدوحين من دونهم، فقد مدح الخلفاء والوزراء وقادة الجيوش، والكتاب والعلماء حتى قيل عنه " ما كان أحد من الشعراء يقدر على أن يأخذ درهما بالشعر في حياة أبي تمام فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه "(١).

وأما ابن خفاجة الأندلسي " فلم يتخذ من الأدب مرتزقا كما جرت عادة أكثر الأدباء في عصره بل استغنى عن ذل التكسب بما ورث عن أهله من ثروة كانت عماده وعتاده طوال حياته "(٢)

إذن فالأمر يبدو مختلفا من حيث الدافع إلى المدح فأبو تمام يمدح لينال العطايا والهبات من ممدوحيه ومع هذا يعتد بنفسه ولا يريق ماء وجهه أمامهم، ومن الدلائل على ذلك أن أبا تمام لما دخل على عبدالله ابن طاهر " أمر له بشيء ولم يرضه ففرقه، فغضب عليه لاستقلاله ما أعطاه وتفريقه إياه "(٣).

وهذا الخبر الذي رواه الصولي يوضح لنا حقيقة نفسية أبي تمام الذي لا يرضى لفنه الشعري إلا بالجائزة السنية فهو يقدر فنه حق قدره، وأما ابن خفاجة الأندلسي فلم يمدح أحدا رغبة في نواله وشغل نفسه بفنه فعكف عليه عكوف الرسام على تمثاله يتأمله ويديم النظر فيه " وقد وقف كل مواهبه

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني طبعة مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر تصحيح الأستاذ الشيخ أحمد الشنقيطي ج١٥ ص ٩٨ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ت د / السيد مصطفى غازي ط منشأة المعارف بالإسكندرية ص ١.

(٣) أخبار أبي تمام للصولي ت خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام و نظير الإسلام الهندي قدم له الدكتور / أحمد أمين ط دار المعارف الجديدة بيروت ط الثالثة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ٢١٢ .

لإدراك الجمال وفهم ظواهره الرائعة المبثوثة في أنحاء الكون فهو من الشعراء الذين ربتهم الطبيعة بجمالها وهذب إدراكه جمال الوجود فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية إلى معالجة التعبير عن هذا الجمال"[١].

وصورة الممدوح بين الشاعرين تختلف باختلاف الممدوحين فلكل صورته التي يرسمها الشاعر بعدسته من واقع حياة الممدوح ولكنها بعين الشاعر الذي يراها من خلال فنه الشعري وخياله الذي يجمع بين جنبات هذه الصور ويضعها في القالب المناسب لها " ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا أن شعر المدح عند العرب في كثير منه يحقق أهدافا أخلاقية ذلك لأنه يصور المثل العليا التي يجب ان يتحلى بها الفرد في سعيه تجاه الكمال في إطار المجتمع العربي أي أن شعر المدح يصور الجوانب الإيجابية من شخصية البطل في المجتمع العربي"[٢] وقد حدد قدامة بن جعفر الفضائل النفسية وحصرها في " العقل والشجاعة والعدل والعفة والقاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيب، والمادح بغيرها مخطئ"[٣].

و"أما الصفات الجسدية فتأتي أهميتها من دلالتها على صفات نفسية وأخلاقية لدى من يتصف بها ويكون المدح بهذه الفضائل الأخلاقية إعلاء لها وتأكيدا على أهمية التمسك بها عن طريق عرضها وتقديم نماذج بشرية متخلقة بها "[٤] وفي هذا يقول أبو تمام:[٥]

---

(١) بلاغة العرب في الأندلس د/ أحمد ضيف ط دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس ص ٢١٣ .

(٢) فنية قصيدة المدح والرؤيا الدينية عند أبي تمام " فتح عمورية نموذجا " د/ أحمد قتيبة يونس مجلة دراسات موصلية العدد السادس عشر ربيع الثاني ١٤٢٨هـ آيار ٢٠٠٧ م ص ٩٧ .

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ت د/ محمد عبد المنعم خفاجي ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ص ٩٦ .

(٤) فنية قصيدة المدح والرؤية الدينية عند ابي تمام ص ٩٧ .

(٥) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ت محمد عبه عزام المدرس بمعهد اللغات الشرقية بجامعة لندن ط الرابعة ط دار المعارف ج٣ ص ١٨٣ .

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة المعالي من أين تؤتى المكارم

وأقصد بالممدوح في هذا البحث هو أي ممدوح أيا كانت صنعته أميرا كان أم كاتبا أم شاعرا أم صديقا للشاعر فقد رسم الشاعران لكل ممدوح صورته التي تناسبه، وقد استقى الشاعران هذه الأوصاف من الثقافة العربية التي غذي بها منذ نعومة أظافرهما وسوف تقف الدراسة على ينابيع هذه الثقافة في الصفحات التالية من هذا البحث.

إذن الدافع للمدح عند الشاعرين مختلف، فعند أبي تمام الهدف منه التكسب، مع احتفاظه بقيمة فنه، وأما ابن خفاجة فلم يكن يقصد به التكسب، وإنما كان يمدح من يستحق المدح بغض النظر عن شخصه وصفته ومكانته.

المبحث الأول
ملامح من حياة الشاعرين

أولا: أبو تمام مولده ونشأته:

هو "حبيب بن أوس الطائي من نفس طيئ صَلِيبةً، مولده ومنشؤه بناحية منبج بقرية منها يقال لها جاسم"(١) وقد أيد هذه التسمية ابن خلكان فعدد نسبه إلى قوله " ابن عدي بن عمرو بن الغوث بن طيء واسمه جلهمة بن أدد بن زيد بن يشحب بن عريب بن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان الشاعر المشهور"(٢) ويقول الصولي عن أبي تمام " وقال قوم هو حبيب بن تدوس النصراني فغير فصار أوسا(٣) وقد أورد الصولي هذا الخبر تحت عنوان ما روي من معائب أبي تمام ولم يعلق على هذا الخبر ، ولم يسنده إلى صاحبه وهذا يدل على عدم صحة هذا الخبر وأن الصولي لم يعبأ به ولهذا أرى أن أبا تمام كان من طيء صليبة كما قال بذلك أبو الفرج الأصفهاني.

ويقول الدكتور الشكعة حول هذا الأمر: "وذهب الذين باعدوا بينه وبين نسبة الطائي إلى أن أباه كان خمارا بدمشق ولكن دليلا واحدا على عدم طائية أبي تمام لم يرتفع إلى درجة كافية من الإقناع والمسألة في واقعها قد وجدت ارتياحا في خاطر بعض المستشرقين الذين يحلوا لهم أن يباعدوا بين كل نابغة فذ وبين عروبته "(٤) وهو " شامي الأصل كان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع ثم جالس الأدباء فأخذ عنهم ، وتعلم منهم وكان فطنا فهما، وكان يحب الشعر، فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر فأجاد

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ١٥ ص ٩٦ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ت د/ إحسان عباس المجلد الثاني ط دار صادر بيروت ج ٢ ص ١١ .

(٣) أخبار أبي تمام للصولي ص ٣٤٦ .

(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي د/ مصطفى الشكعة ط دار العلم للملايين ص ٦٣٢ .

وشاع ذكره وصار شعره وبلغ المعتصم خبره ، فحمله إليه وهو بسر من رأى، فعمل أبو تمام فيه قصائد عدة ، وأجازه المعتصم ، وقدمه على شعراء وقته"(١).

وقال الصولي عن مولد أبي تمام : " وحدثني عون بن محمد الكندي قال سمعت أبا تمام يقول مولدي سنة تسعين ومئة قال وأخبرني مخلد الموصلي أن أبا تمام مات بالموصل في المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومئتين"(٢).

ثقافة أبي تمام :

كان أبو تمام ذا قريحة حافظة وعت الثقافة العربية في مختلف مبانيها من شعر قديم وتاريخ مليء بالعبر وأيام حفظتها ذاكرة التاريخ ، وسجلتها بميداد من نور هذا بجانب الثقافة الإسلامية التي غيرت الحياة العربية والثقافات الأجنبية التي أثرت في حياة العرب في العصر العباسي وقد قيل عن أبي تمام " أنه كان يحفظ أربع عشرة أرجوزة للعرب غير القصائد والمقطوعات ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم"(٣) وقد كان أبو تمام "أديبا عصاميا جادا ارتحل في سبيل المعرفة من الشام إلى مصر وتردد على مسجد الفسطاط حيث حلقات العلم مكتظة بالدارسين يستمعون إلى الشيوخ الذين يلقون الدروس في اللغة والنحو والفقه والأدب وعلوم الدين، والفتى الفقير الشامي المغترب يشترك مع السامعين، ويجد مع المجدين ؛ولكنه يستعين على ضرورات الحياة بسقاية الماء في المسجد فيصيب القليل من الرزق"(٤) و مما يدل على شغف أبي تمام بمدارسة العلم، وعكوفه على تحصيله قول ابن المعتز: " وحدثني أبو الغصن محمد بن قدامة قال : دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر

(١) تاريخ بغداد ت الدكتور / بشار عواد معروف ط دار الغرب الإسلامي ط الأولى سنة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١ م ج ٩ ص ١٥٨ .
(٢) السابق ص ١٦٣ .
(٣) وفيات الأعيان ج٢ ص ١٢ .
(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي د/ الشكعة ص ٦٣٥ .

ما غرق فيه فما يكاد يرى فوقفت ساعة لا يعلم بمكاني لما هو فيه ثم رفع رأسه فنظر إلي وسلم علي فقلت له : يا أبا تمام إنك لتنظر في الكتب كثيرا، وتدقق الدرس فما أصبرك عليها ! فقال : والله مالي إلف غيرها و لا لذة سواها وإني لخليق إن أتفقدها أن أحسن وإذا بحزمتين : واحدة عن يمينه، وواحدة عن شماله ، وهو منهمك ينظر فيهما، ويميزهما من دون سائر الكتب فقلت : فما هذا الذي أرى من عنايتك به أوكد من غيره؟ قال: أما التي عن يميني فاللات ، وأما التي عن يساري فالعزى أعبدهما من عشرين سنة فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد صريع الغواني، وعن يساره شعر أبي نواس"[١] وكان أبو تمام " يضيف إلى هذه الثقافة الواسعة ثقافة فنية لا تقل عنها اتساعا فقد كان متبحرا في الرواية كما تشهد بذلك مؤلفاته الكثيرة التي خلفها ،وهي اختيارات من الشعر القديم ،والحديث، وقد طبع منها ديوان الحماسة المعروف على كل حال استوعب أبو تمام ألوان الثقافات المختلفة التي لعصره ،ولم يقف عند لون معين بل تناول الألوان المختلفة من فلسفة وغير فلسفة "[٢]

ومما يدل على ذكاء أبي تمام وسرعة بديهته ما حدث به محمد بن يحي بن عباد قال: حدثني أبي قال : شهدت أبا تمام ينشد أحمد بن المعتصم قصيدته التي مدحه بها : فلما بلغ قوله :

أبْليتَ هذا المجد أبْعَدَ غايةٍ فيه وأكرم شيمة ونحاسِ

إقدامُ عَمْروٍ في سماحةِ حاتم في حِلْمِ أحْنفَ في ذكاءِ إياسِ

قال له الكندي وكان حاضرا وأراد الطعن عليه : الأمير فوق من وصفت فأطرق قليلا ثم زاد في القصيدة بيتين لم يكونا فيها :

لا تنكروا ضربي لهُ من دونه مَثلاً شَروداً في النَّدى والباسِ

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ت عبد الستار أحمد فراج ط دار المعارف ص ٢٨٣.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي د/ شوقي ضيف ط دار المعارف سنة ١٩٤٣م ص ١٠٩ .

فاللهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لنورِهِ مَثَلاً من المِشكاةِ والنِّبراسِ

قال: فتعجبنا من سرعته وفطنته"[١]

آراء النقاد في شاعرية أبي تمام :

لقد أنصف البحتري أبا تمام وذلك عندما سئل " عنه وعن نفسه فقال : جيده خير من جيدي وردي خير من رديه ،وذلك أن البحتري لا يكاد يغلظ لفظه إنما ألفاظه كالعسل حلاوة فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات بل يغرق في بحره على أن للبحتري المعاني الغزيرة، ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام، ومسروق من شعره"[٢].

وهذا الكلام لابن المعتز يؤكد فيه على تفوق أبي تمام على سلفه البحتري من حيث الوقوع على المعاني البكر ،وغوصه على الفوز بها، ويثبت للبحتري رقة ألفاظه التي شبهها ابن المعتز بالعسل المصفى، ويؤكد ابن المعتز على احتذاء البحتري لأبي تمام فهو شمسه التي لا تغيب عن مخيلته .

وقال عنه عمارة بن عقيل: "لله دره ما يعتمد معنى إلا أصاب أحسنه كأنه موقوف عليه"[٣].

وقد أثنى العلماء على أبي تمام وذلك في معرض حديثهم عن قبيلة طيئ وما امتازت به من المشاهير الذين خلدهم الدهر فقد قالوا :" خرج من قبيلة طيء ثلاثة كل واحد مجيد في بابه حاتم الطائي في جوده ، وداود بن نصير الطائي، وأبو تمام حبيب بن أوس في شعره "[٤].

وقال عنه الحسن بن رجاء " ما رأيت أحدا قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام "[٥].

---

(١) أخبار أبي تمام للصولي ص ٢٣١ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٨٦ .
(٣) الأغاني ج ١٥ ص ٩٨.
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢ ص ١٤ .
(٥) أخبار أبي تمام للصولي ص ١١٨ .

وعبد الله بن المعتز يحكي هذا الخبر عن محمد بن يزيد النحوي فيقول: "جرى ذكر أبي تمام عند محمد بن يزيد النحوي فلم يوفيه حقه، وكان في المجلس رجل من الكتاب نعماني ما رأيت أحدا أحفظ لشعر أبي تمام منه فقال له يا أبا العباس ضع في نفسك من شئت من الشعراء، ثم انظر أيحسن أن يقول مثل ما قاله أبو تمام لأبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي يعتذر إليه: [بحر الطويل]

شهدتُ لقد أقوتْ مغانيكم بعدي ... ومحتْ كما محتْ وشائعُ من بُرْدِ
وأنجدْتُمُ مِنْ بَعْدِ إتهامِ داركُم ... فيا دمع أنْجِدْني على ساكِنِي نَجْدِ

فلما انتهى إلى قوله:

كَرِيمُ متى أَمْدَحْهُ أمْدَحَهُ والْوَرَى ... معِي ومتَى ما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي
فَإِنْ يكُ جُرْمُ عَنَّ أو تَكُ هَفْوَةُ ... على خطإٍ مِنِّي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدِ

فقال أبو العباس محمد بن يزيد : ما سمعت أحسن من هذا قط ما يهضم هذا الرجل حقه إلا أحد رجلين : إما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام وإما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه قال أبو العباس عبد الله بن المعتز: وما مات إلا وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله مقر بفضل أبي تمام وإحسانه "[1].

وقال أبو الفرج الأصبهاني عن شاعرية أبي تمام " شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعاني غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره، وله مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء، وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فإن له فضل الإكثار فيه، والسلوك في جميع طرقه والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به أحد، وله أشياء متوسطة ورديئة رزلة جدا"[2].

(١) أخبار أبي تمام للصولي ص ٢٠٣.
(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ١٥ ص ٩٦ .

وأبو تمام تناوله النقاد قديما وحديثا فمنهم من أنصفه، ومنهم من حط من شأن فنه، وعلى كل حال فهو فجر قضايا في الأدب العربي ونقده ما كان لها أن تأخذ حظها إلا به فهو صاحب مدرسة تسمى مدرسة البديع لها ما لها وعليه ما عليها فقد أثرت فيه صناعته " التي مارسها في دمشق في صدر شبابه صناعة غزل خيوط الحرير ونسجها في ثياب بديعة فيها الوشي والزخرف وضروب شتى من الحلى والزينة"(١).

أليس هو القائل : [بحر الكامل]

خُـــذْها مُثقفـــةَ القـــوافي رِبُّهـــا ... لســـوابغ النَّعمـــاءِ غَيْـــرُ كَنُـــؤُدِ
حـــذَّاءُ تَمْـــلأُ كُـــلَّ أذنِ حكْمـــةً ... وبلاغـــةً وتُـــدرُّ كُـــلَّ وريـــدِ
كالـــدّرِّ والمَرجـــانِ أُلِّـــفَ نظمُـــهُ ... بالشَّـــذْرِ في عُنُـــقِ الفتـــاةِ الـــرو دِ
كشـــقيقة الـــبُرْدِ المنمـــنم وشْـــيُهُ ... في أرضِ مَهْـــرةَ أو بـــلاد تَزِيـــدِ(٢)

ثانيًا: ابن خفاجة الأندلسي:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي الشاعر المشهور وهو " شاعر مشهور متقدم مبرز حسن الشعر جدا، خبيث الهجاء، وشعره كثير مجموع ، وكانت له همة رفيعة، وكان يخرج من جزيرة شقر وهي كانت وطنه في أكثر الأوقات إلى بعض تلك الجبال التي تقرب من الجزيرة وحده فكان إذا صار بين جبلين نادى بأعلى صوته : يا إبراهيم تموت يعني نفسه فيجيبه الصوت ولا يزال كذلك حتى يخر مغشيا عليه ... توفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة لأربع بقين من شوال وهو ابن اثنتين وثمانين سنة "(٣) وقال عنه ابن خلكان ولد أبو إسحاق المذكور بجزيرة شقر من أعمال بلنسية من بلاد الأندلس ...وشُقْر بضم الشين المثلثة وسكون القاف والراء

(١) في الشعر العباسي نحو منهج جديد د يوسف خليف ط دار غريب ص ٩٤ .
(٢) ديوان أبي تمام ج ١ ٣٩٧ .
(٣) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي ٥٩٩هـ / ١٢٠٣ م ت إبراهيم الأبياري ط دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت ج ١ ص ٢٦٥ .

المهملة وهي بليدة بين شاطبة وبلنسية وإنما قيل لها جزيرة ؛لأن الماء محيط بها "[١] وقد عاش ابن خفاجة " زمن ملوك الطوائف، وإبان حكم المرابطين وهذه العصور أزهى عصور الأندلس فيها قامت دولة الأدب والشعر ،وغصت مجالس الأمراء بالشعراء فكانت بيوتهم أسواقا للعلماء، وأندية للأدباء ، وكانت الحياة إذ ذاك حياة ترف ورخاء، وتبع هذا الترف الميل غلى اللهو والمجون وأنواع السرور "[٢] وقد استبد اللهو بابن خفاجة " في مطلع حياته ثم ترك اللهو والمجون وعاش صرورة (لم يتزوج) وقضى معظم حياته في ضيعة له قرب بلده ينظم الشعر في أغراض نفسه ،ولم يقصد أحدا من ملوك الطوائف ،ولكن بعد أن استولى المرابطون على معظم جزيرة الأندلس و أزالوا معظم ملوك الطوائف اتصل ابن خفاجة ــ وكان قد بلغ أشده وذاعت شهرته ــ بولاة المرابطين على الأندلس، ومدحهم إعجابا لا تكسبا، وكانت له في أيامهم حظوة"[٣].

آراء النقاد في شاعرية ابن خفاجة :

قال صاحب قلائد العقيان عن ابن خفاجة :" مالك أعنة المحاسن، وناهج طريقها، العارف بترصيعها ،وتنميقها الناظم لعقودها الراقم لبرودها، المجيد لإرهافها، العالم بجلائلها وزفافها ،تصرف في فنون الإبداع كيف شاء ... فجاء نظامه أرق من النسيم العليل، وآنق من الروض البليل"[٤].

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج١ ص ٥٧ .

(٢) الأدب الأندلسي التطور والتجديد د/ محمد عبد المنعم خفاجي ط دار الجيل بيروت ص ٥٠٣ .

(٣) تاريخ الأدب العربي د/ عمر فروخ ط دار العلم للملايين ط الرابعة سنة ١٩٨١ م ج ٥ ص ٢١٨ .

(٤) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان للفتح بن خاقان ط مصر سنة ١٢ ٨٤ هـ ١٨٦٦م ص ٢٣٠ .

وذكره المقري في نفح الطيب فقال: "وأبو إسحاق بن خفاجة كان أجود الناس في وصف الأنهار، والأزهار والرياض، والحياض، والرياحين، والبساتين"(١).

وقال عنه ابن بشكوال في كتاب الصلة :" وهو حامل لواء الشعر بالأندلس، والإمام فيه غير مدافع فإنه سلك فيه طريق الحلاوة والجزالة وقد صارت قصائده "(٢) ويقول عنه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي :" وقد مدح ابن خفاجة أمراء، ووزراء، فلم يتعرض في مدحه لنصح أو زجر، أو تحذير، حتى قصيدته التي قالها في استرداد بلنسية من العدو لم يتعرض فيها لشيء مما أشرنا إليه "(٣).

وقال عنه صاحب بلاغة العرب في الأندلس: " كان صاحب مذهب كتابي وأسلوب أدبي يوازن بأبي تمام في شعره ومذهبه، وبن العميد أو الهمذاني في النثر والكتابة فإنه يشبه أبا تمام من حيث الميل إلى تنميق عباراته الشعرية والتعمل قليلا أو كثيرا في ذلك، والعناية بذكر أنواع البيان والبديع؛ ولكنه مع هذا غير ظاهر التكلف كأن ذلك جاءه عفوا، أو كأنه سليقة له، وهو على ما يظهر من شعره من المتشيعين لطريقة أبي تمام المعجبين بها"(٤).

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري ت د/ إحسان عباس ط دار صادر بيروت ج١ ص ٦٨١.

(٢) الصلة لابن بشكوال القسم الأول ط الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م ص ٩٩ .

(٣) الأدب الأندلسي التطور والتجديد د محمد عبد المنعم خفاجي ص ٥١٠ .

(٤) بلاغة العرب في الأندلس د/ أحمد ضيف ط دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس ص ٢١٥ .

المبحث الثاني
الصورة بين القدامى والمحدثين

أولا: الصورة عند القدامى

للصورة الفنية دور بارز في بناء القصيدة فلا غنى للشعر عنها، ولا يسمى الشعر شعرا من غير التصوير الفني الجيد، فالصورة والموسيقى هما جناحي القصيدة الشعرية فبهما يسمى الشعر شعرا ،وقد أغرم الشعراء بالصورة الفنية، وتتفاوت درجاتهم حسب الوقوع على التصوير الذي يأخذ بمجامع النفس الإنسانية، والصورة في تاج العروس هي :" الشكل والهيئة والحقيقة، والصفة جمع صور بضم ففتح و قال المصنف في البصائر : الصورة ما ينتقش به الإنسان ويتميز بها عن غيره، وذلك ضربان، ضرب محسوس يدركه الخاصة والعامة بل يدركها الإنسان، وكثير من الحيوانات كصورة الإنسان، والفرس، والحمار ،والثاني معقول يدركه الخاصة دون العامة كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل والروية والمعاني التي ميز بها وإلى الصورتين أشار تعالى بقوله: "وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ "(١) (٢) ومن المعاني اللغوية السابقة يتضح لي أن الصورة هي الشكل والهيئة والصفة ،وأن الصورة قد تدرك بالحواس فتكون صورة حسية ،وقد تدرك بالعقل ولا يدركها إلا الخاصة وتسمى صورة عقلية، وهذه المعاني ذات صلات أكيدة بالمعاني الاصطلاحية للصورة.

وقد فرق الأستاذ الحوماني صاحب مجلة العروبة بين ثلاث مصطلحات هي الصورة ،والتصور، والتصوير فقال:" الصورة إحدى ظواهر الطبيعة وهي إما حقيقة، أو خيال، والتصور مرور الفكر بهذه الحقائق يتصفح صورها،

---

(١) الآية من سورة غافر ٦٤ .

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ت مصطفى حجازي راجعه عبد الستار أحمد فراج ط سنة ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م ط مطبعة حكومة الكويت ج١٢ ص ٣٥٧ .

والتصوير إبراز هذه الصور إلى الخارج بشكل فني ، فالتصور إذن هو العلاقة بين الصورة والتصوير وأداته الفكر فقط ، وأما التصوير فأداته الفكر واللسان والصورة يتعاقب عليها فنان فن المبدع وفق المصور ، ويقال للمصور مبدع إذا كانت الصورة من خلقه وهو يتصفح الحقائق فينتزع منها صورة مركبة نسميها خيالا "[١].

مفهوم الصورة في النقد العربي القديم:

لقد تحدث الجاحظ عن الصورة في كلمات موجزة فقال :" فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[٢] وقول الجاحظ الشعر صناعة يعني أنه صناعة فنية تحتاج إلى مهارة وإبداع، وأما قوله :"النسج " فيعني التحام اللفظ، والمعنى، والمشاعر، والأحاسيس في بوتقة واحدة بحيث لا نستطيع الفصل بينهم، فهم كالنسيج الذي التحمت فيه خيوطه فكونت شكلا ملتئما لا يمكن تفريق خيوطه لالتحامها وقوة نسيجها ،وجمال شكلها، والتصوير الذي عناه الجاحظ هو الصورة التي تفنن الشعراء في رسمها لتصبح أداة للمفاضلة بين الشعراء ومجالا خصبا لعرض الأفكار والمشاعر في صور فنية رائعة.

وقد تعرض أحد النقاد لشرح مقولة الجاحظ عن الصورة فقال :" وبعد هذا كله يصل الجاحظ إلى أن الشعر في النهاية جنس من التصوير وأنه ليس التصوير نفسه وعليه فإنه إذا كان قد شبه الشعر بالتصوير لما حرر من خصائصه التعبيرية والموسيقية واللونية لم يشأ في الوقت نفسه أن يجعله تصويرا محضا ؛ذلك لأن التصوير بحكم أدواته ،ومواده ينزوي في مرمى حاسة البصر ملتمسا سبيله إلى نفس الرائي ووجدانه وإحساسه ،أما الشعر

(١) مجلة الرسالة المجلد الثاني السنة الثانية العدد ٦٤ بتاريخ ٢٤ /٩ / ١٩٣٤ م ص ١٧٥٦ .

(٢) الحيوان للجاحظ ت وشرح عبد السلام محمد هارون ط الثانية ج ٣ ط شركة ومكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ص ١٣٢ .

فيتسلل بخفة عن طريق وسيلة اللغة التي تتألف من الكلمات في ضوء قواعد من نظمها المميز، والكلمات هي تاريخ فكر الأمة في تطور مدلولاتها ،ومرآة عقل التراث في رموزها وإشاراتها ووساطة تخاطب عقول الناس ومشاعرهم في أبنيتها "(١)

الصورة عند ابن طباطبا العلوي:

إن ابن طباطبا العلوي ناقد بصير بالشعر ،وعالم بضروبه ،خبير بمذاهب الشعراء في بناء شعرهم ؛ولذا أراه قد حدد سمات البناء الفني للقصيدة العربية ،ودعا الشعراء إلى السير على منوالها ،وفي حديثه عن الصورة قال:" وإيفاء كل معنى حظه من العبارة وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة، واجتناب ما يشينه من سفاسف الكلام ،وسخيف اللفظ والمعاني المستبردة ،والتشبيهات الكاذبة "(٢).

ويقول في موضع آخر " فأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقص بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبها به صورة ومعنى، وربما أشبه الشيء الشيء صورة، وخالفه معنى وربما أشبهه معنى وخالفه صورة، وربما قاربه وداناه أو شامه وأشبهه مجازا لا حقيقة "(٣).

والكلام السابق يدل على فطنة ابن طباطبا، وحسن تنظيره للصورة فقد جعل لكل معنى صورة لفظية خاصة به لا يرى إلا من خلالها، ولا يعرف إلا بها، وينبغي على الشاعر أن يدقق النظر في الصورة اللفظية ويضع كل لفظ تجاه معناه المنوط به، وتلك سمة خاصة لا تتحقق في كل الشعراء، ثم فصل الحديث عن أول عنصر من عناصر تشكيل الصورة وهو التشبيه، ولم يقف

(١) بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق تأليف الدكتور كامل حسن البصير ط مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ م ص ٢٨ .

(٢) عيار الشعر طباطبا العلوي شرح وتحقيق عباس عبد الستار ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ص ١٠ .

(٣) السابق ص ١٧ .

بالتشبيه عند حد المشابهة الحسية بين الطرفين بل تجاوزها إلى المشابهة المعنوية وتلك خطوة نقدية تعد إضاءة في مجال بناء الصورة الفنية . "وقد وافق ابن طباطبا الجاحظ في أن الصورة تطلق على الشيء الحسي ، وأنها ألصق بالشعر إلا أنه وازن بينها وبين فنون التصوير الأخرى من نقش ورسم ونسج وغيرها من فنون التصوير الأخرى التي يستخدمها أصحابها لإيصال ما يريدون "(١).

الصورة عند أبي هلال العسكري:

لقد نوه أبو هلال العسكري بأهمية الصورة ،وأنها بمثابة الثوب الذي يلبسه المعنى المناسب له فيقول: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ،ومعرض حسن وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة ؛لأن الكلام إذا كانت عباراته رثة ومعرضه خلقا لم يسم بليغا ،وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى"(٢).

وعندما تحدث عن التشبيه وهو من عناصر تشكيل الصورة الفنية قسم التشبيه إلى أربعة أوجه وهي :

١- إخراج ما لا يقع عليه الحاسة إلى ما وقعت عليه.

٢- إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة.

٣- إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها.

٤- إخراج مالا قوة له في الصفة على ماله قوة فيها"(٣).

وينقل ابو هلال عن العتابي قوله :" الألفاظ أجساد ،والمعاني أرواح ،وإنما تراها بعيون القلوب فإذا قدمت منها مؤخرا أو أخرت منها مقدما أفسدت

(١) الصورة الفنية في شوقيات حافظ دراسة تنظيرية تطبيقية د/ عبد اللطيف محمد السيد الحديدي ط الأولى سنة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م ص ٦٠ ،

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ت الدكتور مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ص ١٩.

(٣) السابق ص ٢٦٤ .

الصورة وغيرت المعنى كما لو حوِّل رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية وقد أحسن في هذا التمثيل وأعلم به على أن الذي ينبغي في صيغة الكلام وضع كل شيء في موضعه ليخرج بذلك من سوء النظم "[١].

وأبو هلال يدرك معنى الصورة ،وأهمية النظم فوضع كل لفظة في موضعها يؤدي إلى حسن النظم، وأما وضع كل لفظة في غير موضعها فإنه يفسد النظم ويهلهله ؛ولذا عد من سوء النظم المعاظلة واستشهد لها بأمثلة عديدة.

وقد أدرك أحد النقاد الذين عنوا بدراسة الصورة أن لا فرق بين اللغة والصورة في التراث العربي فقال: "إن التراث العربي الأصيل قرن ما بين اللغة والصورة أصلا ومزج هذه بتلك أداة فإذا كلمة الفرس مثلا تصور لنا هيئة هذا الحيوان وشكله وحركته ،وإذا أسندت إلى فعل من الأفعال أو أجريت تكملة لمسند ومسند إليه حصلنا على جملة تصور الفرس والفارس الذي يمتطيها في صورة متكاملة"[٢].

مفهوم الصورة عند عبد القاهر الجرجاني:

يعد عبد القاهر الجرجاني علامة فاصلة في تاريخ الفكر العربي فقد وعى مصطلح الصورة الفنية تنظيرا وتطبيقا في كتابيه " أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز " ففي أثناء حديثه عن التشبيه التمثيلي بين الفرق بين الكلام العاري عن الصورة والكلام المشتمل على الصورة في قوله :" فتعهد الفرق بين أن تقول: فلان يكد نفسه في قراءة الكتب، ولا يفهم منها شيئا وتسكت، وبين أن تتلوا الآية وتنشد قول الشاعر:

زواملُ للأشعارِ لا علمَ عندهم بجيـــدها إلا كعلـــمِ الأبـــاعرِ

(١) السابق ص ١٧٩ .

(٢) بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق د/ كامل حسن البصير ص ٤٤ .

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر[1]

ثم شرح عبد القاهر أثر الصورة على نفسية متلقي العمل الإبداعي وأشاد بالصورة المستمدة من الحواس في قوله :" إن أنس النفس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني ،وأن تردها في الشيء تعلمه إياها إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ؛لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا: "ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين" فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة، وضرب آخر من الأنس، وهو ما يوجبه تقدم الألف"[2] وهذا الكلام الذي ذكره عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري أدركه العقاد وهو بصدد الحديث عن أحمد شوقي الذي كان حريصا على جمع الصورة الشعرية في قصائده دون ربط هذه الصورة بشعوره وفي ذلك يقول العقاد :" فاعلم أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصي أشكالها وألوانها وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وإنما مزيته أن يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به وليس همهم من القصيد أن يتسابقوا في أشواط البصر والسمع وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه وإذا كان كدك من التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ت السيد محمد رشيد رضا ط الخامسة ط دار المنار سنة ١٣٧٢هـ ص ٩٩.

(٢) السابق ص ١٠٢ .

أشياء حمراء بدل شيء واحد؛ ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك ،وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها؛ وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس"[١].

وفي موضع آخر يتحدث عبد القاهر الجرجاني عن التشبيه الصريح إذا وقع بين شيئين متباعدين فيقول: "ألا ترى أن التشبيه الصريح إذا وقع بين شيئين متباعدين في الجنس ثم لطف وحسن لم يكن ذلك اللطف وذلك الحسن إلا لاتفاق كان ثابتا بين المشبه والمشبه به من الجهة التي بها شبهت إلا أنه كان خفيا لا ينجلي إلا بعد التأنق في استحضار الصورة وتذكرها وعرض بعضها على بعض ..."[٢] وهذا النص يؤكد أن المشبه والمشبه به لهما صورة تستحضر عند الوقوف حيالها لمعرفة الجامع بين الطرفين ووضع الصورتين أمام بعضهما البعض لاستكناه شدة البعد مع شدة القرب في الصورتين .

ويتحدث عبد القاهر عن الصورة حديثا صريحا فيقول :" واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا ولما رأينا البينونة بين أحاد الناس تكون من جهة الصورة ... وكذلك كان الأمر في المصنوعات فكان بين خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك "[٣].

لقد كانت الصورة عند عبد القاهر الجرجاني يغلب عليها الجانب الحسي فما ندركه بعقولنا نتصوره بحواسنا " فالصورة عنده تمثيل وقياس تخلقه العقول من

(١) الديوان لمؤلفيه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني ط دار الشعب ط الرابعة ص ٢٠ .

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ١٣١ .

(٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ط مكتبة الخانجي ط الثالثة سنة ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م ص ٥٠٨

مواد أوجزت فيها وانتهت إليها على مساحة من الوجود إذا كانت تحددت بالبصر في ذلك النص فإنها تقف بنا في موازنة بين الصورة البصرية والصورة الأدبية وإلا فإن هذه المساحة ـ كما رأينا ـ تمتد من المعهود الموروث تجارب وخبرا في سجل التاريخ العام والخاص والحواس باصرة وسامعة وذائعة وشامة ولامسة فتؤتي أكلا مبتدعة ومستحدثة من النصوص الأدبية التي تستوي العقول بمدلولها المقرر معايير لقويمها والحكم عليها بالمزية والفضيلة "[١].

ويقرر عبد القاهر الجرجاني أن حديثه عن الصورة لم يكن مبتدأ فيه فقد سبقه إلى ذلك الجاحظ وذلك في قوله:" وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ " وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير "[٢].

والتناول السابق لمفهوم الصورة عند النقاد القدامى أثبت أنهم فقهوا مفهوم الصورة ووعوا أثرها في بناء القصيدة ،وأن وسائل تشكيل الصورة يكمن في التشبيه، والاستعارة، والكناية، وأن من مصادر الصورة القرآن الكريم ،والحديث النبوي الشريف ،والبيئة ، وأن الصورة توجد في الشعر والنثر، ولكنها في الشعر ألصق وجمع النقاد القدامى بين النظرية والتطبيق فقد تعرضوا للحديث عن الأثر النفسي للصورة وشرحوا أهميتها في بناء العمل الفني.

ثانيا: مفهوم الصورة في النقد العربي الحديث

إن الصورة هي الإطار الخارجي الذي يحمل تجربة الشاعر، وأفكاره وعواطفه، وشعوره في شكل يجسد المعنويات، ويشخص الجمادات، ويوحي بما وراءه من خلال اللفظة المنتقاة القادرة على الإلمام بأطراف المشهد، والإفضاء بعواطف الشاعر، وأحاسيسه تجاه ما مر به من أحداث، ثم التأثير بكل ما سبق على المتلقي، وقد تباينت وجهة نظر النقاد حول مفهوم الصورة فمن ذلك قول

(١) بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق د/ كامل حسن البصير ص ٤١ .
(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٥٠٨ .

أحدهم :" الصورة هي الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة ... في معناها الجزئي والكلي فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء هي بدورها صورة جزئية تقوم من الصورة الكلية مقام الحوادث الجزئية، وإذن فالصورة جزء من التجربة، ويجب أن تتآذر مع الأجزاء الأخرى في نقل التجربة نقلا صادقا فنيا وواقعيا"(١).

فالشاعر يربط بين الصورة، والتجربة الشعرية برباط فني حميم ؛لنصل في النهاية إلى أن التجربة والصورة وجهتان لعملة واحدة . ويعرف أحد النقاد الصورة بقوله:" الصورة الأدبية هي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر أعني خواطره ومشاعره وعواطفه المطلقة من عالم المحسات؛ ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى في إطار قوي تام محس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين"(٢).

فالشاعر ينتقي صوره خلال ألفاظ اللغة المنتقاة؛ ليعبر عن مشاعره وخواطره، ويكشف الحقائق الفكرية والنفسية عبر الصور المجسدة لها .

والصورة عند عبد القادر القط هي "الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص؛ ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير"(٣). وهذا المفهوم للصورة يعني أن المبدع يحشد كل طاقاته الفنية لبناء صورة بداية من اللفظ المنتخب ومرورا بإمكانات

(١) النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ص ٤١٧

(٢) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر د/ علي علي صبح ط المكتبة الأزهرية للتراث سنة ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م ص ١١ .

(٣) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د / عبد القادر القط ط مكتبة الشباب سنة ١٩٨٨م ص ٣٩١ .

اللغة المجازية كل ذلك؛ لكي تعبر الصورة ما كان مستغلقا في سراديب نفسه ومكنونات وجدانه، والصورة الأدبية هي: "تلك الظلال والألوان التي تخلعها الصياغة على الأفكار والمشاعر، وهي الطريق الذي يسلكه الشاعر والأديب لعرض أفكاره وأغراضه عرضا أدبيا مؤثرا فيه طرافة ومتعة وإثارة"(١).

والصورة الفنية عند زكي مبارك هي: "أثر الشاعر المفلق الذي يصف المرئيات وصفا يجعل قارئ شعره ما يدري أيقرأ قصيدة مسطورة أم يشاهد منظرا من مناظر الوجود الذي يصف الوجدانيات وصفا يخيل للقارئ أنه يناجي نفسه ويحاور ضميره "(٢) .

ودور الصورة عند زكي مبارك لا يتعدى الوصف الذي يحيط بالموصوف من كل جوانبه وإن كان الوصف من سمات الصورة إلا أن الصورة ليست وقفا عليه.

ويرى الدكتور/ علي عشري زايد أن الصورة في الشعر الحديث:" إبداع خالص للروح، ولا يمكن أن تتولد من التشابه؛ وإنما من التقريب بين حقيقتين متباعدتين كثيرا أو قليلا، وكلما كانت الصلات بين الحقيقتين اللاتين يقرب بينهما الشاعر بعيدة ودقيقة كانت الصورة أقوى وأقدر على التأثير ،وأعنى بالحقيقة الشعرية ومن ثم فإننا نجد أطراف الصورة في القصيدة الحديثة على قدر واضح من التباعد، والشاعر هو الذي يقرب بينهما؛ لأنه يكتشف العلاقات بينهما بروحه وخياله وليس بحواسه، ومن ثم فإنه يهتدي بوحي من

(١) الصورة الأدبية في القرآن الكريم د/ صلاح الدين عبد التواب ط الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ط الأولى سنة ١٩٩٥م ص ٩ .

(٢) الموازنة بين الشعراء تأليف زكي مبارك ط الثالثة سنة ١٣٩٣ هـ ط مكتبة مصطفى البابي الحلبي ص ٦٩ .

الروح والخيال إلى هذه العلاقات الأكثر خفاء وعمقا "[1] وهذا التعريف يؤكد على أمرين هما:

١ـ دور الخيال في الصورة الفنية وقدرته على الجمع بين أطرافها على الرغم من التناقض البين بين جزئياتها.

٢ـ أن العلاقة بين أجزاء الصورة ليست المشابهة كما كانت في الصورة القديمة نتيجة حرص المبدع على بث الحياة والروح في صوره وإكسابها طابع التشخيص والتجسيد .

وأختم حديثي عن مفهوم الصورة بقول الدكتور عبد القادر الرباعي :" إن الصورة الفنية هي كل شيء تقوى على رؤيته أو سماعه أو لمسه أو تذوقه ومن هنا قيل أيضا يجب ألا تعتمد القصيدة في إيصال مغزاها على الأسلوب المجرد بل عليها بدلا من ذلك الاعتماد على الصورة الحسية"[2].

(١) عن بناء القصيدة العربية القصيدة العربية الحديثة د/ علي عشري زايد ط الرابعة سنة ١٤١٦هـ الناشر مكتبة الشباب القاهرة ص ٧٧ .

(٢) الصورة في النقد الأدبي د/ عبد القادر الرباعي مجلة المعرفة الدمشقية عدد ٢٠٤ ص ٤٣ .

المبحث الثالث

صورة الممدوح بين أبي تمام وابن خفاجة

أولا: صورة الممدوح الكريم بينهما

حظيت صورة الممدوح الكريم باهتمام الشاعرين، إلا أن أبا تمام كان أكثرهما حديثا عنها. والكرم من الصفات التي كان العربي يعتز بها، وقد حث الإسلام عليه، ولكنه قنّن هذه الصفة حتى لا يتحول الكرم إلى إسراف وتبذير للمال قال تعالى في كتابه الكريم: "**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**"(١) ففي هذه الآية دعوة إلى "الإنفاق المتوازن الذي يسري حركة الحياة ويسهم في إنمائها ورقيها على خلاف القبض والإمساك فإنه يعرقل حركة الحياة، وينتج عنه عطالة وبطالة ،ورقود في الأسواق ،وكساد يفسد الحياة ويعوق حركتها إذن لا بد من الإنفاق لكي تسهم في سير عجلة الحياة، ولا بد أن يكون الإنفاق معتدلا حتى تبقي على شيء من دخلك تستطيع أن ترتقي به وترفع من مستواك العادي في دنيا الناس"(٢) وصفة الكرم من الصفات التي كانت مناط فخر العرب ومنهم شخصيات صارت رمزا للكرم كحاتم الطائي الذي علق اسمه في ذاكرة العرب بكرمه الذي كان حديث القاصي والداني ،ونسجت حول كرمه القصص والحكايات، وسوف أقف مع هذه الصفة لأرى كيف استطاع أبو تمام أن يجليها عبر صوره الفنية؛ ليجعل منها تيجانا توضع فوق رؤوس الممدوحين الذين شغف أبو تمام برسم لوحات شعرية لهم تبين علو كعبهم ورفعة شأنهم ،وسيرورة مجدهم ،وأول صورة من صور الممدوح الكريم قول أبي تمام :[بحر الكامل]

سَـيْلُ طَمَـا لَـوْلاْ يَـذُدْهُ ذائـدُ ... لتَبَطَّحـــتْ أُولاهُ بالبطْحـــاءِ
وغَدَتْ بُطُون مِنَى مُنًى مِنْ سَيبِه ... وغَدَتْ حَرىً منهُ ظُهورُ حِراءِ

(١) الآية من سورة الإسراء رقم (٢٩).
(٢) من تفسير الشعراوي لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ج١٤ ص ٨٤٨٢.

وتَعرَّفَـــتْ عرفـــاتُ زاخـــرهُ ولَمَ يُخْصَـصْ كَـدَاءُ منـهُ بالإكْـدَاءِ

ولَطَـابَ مُرْتَبَـعُ بِطيبـةَ واكتسـتْ بـردين بُـرْدَ ثَـرَى وبُـردَ ثَـرَاءِ[1]

فقد صور أبو تمام كرم الممدوح بالسيل وتلك صورة مستمدة من البيئة البدوية التي تحتفي بالماء أتم احتفال إذ به تكون الحياة ،وبدونه الفناء والموت ؛ولكن أبا تمام صناع ماهر معه أدواته الفنية التي أطفاها على جو الصورة فبدت ،وكأنها خلق جديد من فكر أبي تمام فالسيل يغمر المكان بالماء، والممدوح يغمر الناس بعطائه فلم يقتصر عطاؤه على صنف من الناس؛ وإنما شمل عطاؤه كل الناس فقد علا السيل جميع المرتفعات ؛ليكسوها بالماء، ولكن زائدا منع هذا السيل، وهذا كناية عن عزل خالد من ولاية مكة والمدينة فلولا هذا العزل لسرى هذا العطاء في بطحاء مكة جميعها، وفي بطون منى، وفي عرفات، وفي طيبة كلها، ولكن هذا السيل تحكمت فيه عوامل خارجية حالت بينه وبين الوصول إلى كل هذه الأماكن وهذه الأماكن لها صدى عظيم في نفوس المسلمين، والصورة السابقة محفوفة بالبديع مطرزة به فقوله: "لتبطحت والبطحاء و بطون مِنى مُنىً، وتعرفت عرفات ، وكداء بالأكداء، كلها ألفاظا متجانسة وجاء الطباق في قوله: برد ثرى، وبرد ثراء، وألحظ في الصورة السابقة أن الشاعر جاء بها من التراث الأدبي القديم، ولكنه نمَى هذه الصورة، وأتى فيها بمعان جديدة، وربط بينها وبين الممدوح، وهذا يدل على أن أبا تمام كان يقف أمام صوره ويقدح ذهنه؛ ليخرج منها بأشياء لم يسبق إليها وتلك مهارة الشاعر الصناع، وقد كان أبو تمام "معجبا بما يتخذه في شعره من أدوات فنية يريد بها تزيين الفن وتنميقه، وإخراجه على صورة تكاد تختلف عن صورة القديم وإن اشتركت معها في الأصول أو جاءت من نفس منبعها، وكان في بعض الأحيان يقع على زخرف غريب وقد تجيء بعض هذه الصور على

(١) ديوان أبي تمام بشرخ الخطيب التبريزي ت محمد عبده عزام ط دار المعارف ط الخامسة المجلد الأول ص ١٠.

نحو لا يرضى عنه المحافظون من النقاد أو الذين ألفوا القديم لطول معاشرتهم له والألفة التي ربطت بينهم وبينه"[1] ويمدح أبو تمام عمر بن طوق فينعته بالكرم قائلا :[بحر الكامل]

يُعطِي عَطاءَ المُحْسِنِ الخَضِلِ النَّدَى عَفْواً ويَعْتَذِرُ اعْتِذارَ المُذْنِبِ
ومُرَحِّبُ بالزائرينَ وبشْرُهُ يُغْنِيكَ عن أهلٍ لديْهِ ومَرْحَبِ
يَغْدُو مُؤَمِّلُهُ إذا ما حطَّ في أَكْنافِهِ رَحْلَ المُكِلِّ المُلْغِبِ
سَلِسَ اللُّبانَةِ والرَّجَاءِ بِبابِهِ كَتَبَ المُنَى مُتَدَّ ظِلِّ المَطْلَبِ[2]

في الأبيات السابقة يرسم الشاعر للممدوح صورة تظهر سماحة نفسه وكرمه وكثرة عطائه ولين جانبه وعفوه عن المسيء إليه، وهذا العطاء النفسي أعظم من العطاء الحسي فمغالبة النفس وقهرها حتى يستوي لديها العفو والعقوبة من السمات التي خص بها هذا الممدوح، وللكناية في هذه الصورة دور بارز في قوله: "ومرحب بالزائرين وبشره، وقوله سلس اللبانة والرجاء ببابه ،وهذه الصورة التي رسمها للممدوح قد يظن منها ضعف شكيمته ؛ولذا جاءت الأبيات التالية تنفي عنه ذلك، وتثبت أنه لين في غير ضعف وذلك في قوله:

شَرِسُ ويُتْبَعُ ذَاكَ لِينَ خَلِيقَةٍ لا خَيْرَ في الصَّهْباءِ مَالَمْ تُقْطَبِ

فقوله: "سلس اللبانة ثم قوله: "شرس ويتبع ذلك لين خليقة" نرى صورتين متناقضتين وزادهما حسنا هذا التناقض الذي يجعل ذهن المتلقي يقارن بين الصورتين ثم يجنح الشاعر إلى الاتيان بالحجة التي تدحض هذه الحيرة في قوله: لا خير في الصهباء مالم تقطب ،ولا خير في هذا اللين مالم يكن مصحوبا بالشراسة التي تزيده صلابة وقوة فهما متلازمان لا فضل لأحدهما بدون صاحبه.

(١) الشعراء المحدثون في العصر العباسي د/ العربي حسن درويش ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ م ص ١٣١.
(٢) السابق ص ١٠٢.

ويمدح أبو تمام الحسن بن وهب وينعته بالكرم ويصوره بالغيث وهي صورة تشبيهية جزئية تظهر كرم الممدوح، وحسن عطائه، ويضيف الشاعر إليها أن الممدوح يتعهده حيثما كان؛ ليغمره برفده وفي ذلك يقول:

صَدَفْتُ عنهُ فلمْ تَصْدِفْ مَوَدَّتُهُ عــنِّي وعــاودَهُ ظَــنِّي فلــم يَخِــبِ
كالغَيْــثِ إنْ جِئتَــهُ وافَــاكَ رَيِّقُــهُ وإنْ تَحَمَّلتَ عنهُ كان في الطَّلَبِ[1]

ولعل هذا المعنى مأخوذ من قول عمرو بن الأهتم:

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا[2]

ففي البيتين مبالغة في إكرام الجار وتلك محمدة تضاف إلى سجل العرب الحافل بالأمجاد وتتكرر صورة الغيث مرة أخرى وذلك في قول أبي تمام:

هوَ الغيثُ لَوْ أفرطتُ في الوصفِ عامداً لأكذِبَ في مَدْحِيه ما كنتُ كاذِبا
ثَــوَى مالُــهُ نَهْــبَ المعــالي فأوجبــتْ عليه زَكاةُ الجودِ ما ليس واجِبا
تُحَسَّــنُ في عَينيــهِ إن كُنْــتَ زائــراً وتزدادُ حُسْناً كُلَّما جئتَ طالِبا[3]

فالصورة الأولى جاءت في قوله كالغيث والثانية جاءت في قوله هو الغيث والفرق واضح بين الصورتين فالصورة الثانية تعد من التشبيه البليغ المحذوف الوجه والأداة، ولم يكتف الشاعر بهذه الصورة الجزئية بل رسم صورة نفسية للممدوح ظهرت في أسارير وجهه ساعة يرى القادم عليه فيتهلل وجهه فرحا إن كان الضيف زائرا، ويزداد وجهه حسنا إن كان الضيف سائلا، ومما سبق ألحظ أن أبا تمام يقف أما الصورة القديمة فيضيف إليها ما يجعلها جديدة متناسبة مع فكره، وعقله، وثقافته التي غذي بها من لبان العلوم الأجنبية التي كانت سائدة في عصره فهو شاعر مفكر يتمحص في صوره ،ويكسوها من المعاني، والألفاظ ما يستميح بها نفسية الممدوح.

(١) ديوان أبي تمام ج١ ص ١١٣ .
(٢) شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم دراسة وتحقيق د/ سعود محمود عبد الجابر جامعة قطر ط الأولى سنة ١٤٠٤ هـ ١٩٤٨م ط مؤسسة الرسالة ص ٩٨ .
(٣) ديوان أبي تمام ج١ ص ١٤٣ .

وتأتي الصورة التشخيصية لتتناسب مع تجربته إذ يحوكها في رحاب خياله المحلق في سماوات الإبداع الفني في قوله: [بحر الكامل]

إذا العِيسُ لاقتْ بِي أبا دُلَف فقدْ ... تقطَّعَ ما بيني وبينَ النوائبِ
هُنا لِكَ تَلقَى الجُودَ حيْثُ تقطعتْ ... تمائِمُهُ والمجدَ مُرخَى الذَّوائِبِ
تكادُ عطاياهُ يُجنُّ جُنونُها ... إذا لم يُعَوِّذها بنغْمةِ طالبِ
إذا حرَّكَتْهُ هِزةُ المجدِ غيرتْ ... عطاياهُ أسماءَ الأماني الكواذِبِ
إذا ما غَدَا أغدَى كريمةَ مالِهِ ... هَدِيًّا ولو زُفَّتْ لألأمِ خاطِبِ(١)

صور الشاعر الكرم في الأبيات السابقة في صورة تشخيصية فجعله إنسانا تقطعت تمائمه وأرخى ذوائبه فهو يعيش آمنا في هذا المكان الذي حل به ولا يرغب في التحول عنه؛ لأنه وجد طلبته التي كان ينشدها ويتمناها فألقى عصا الترحل، ثم صور العطايا بإنسان يفسد عقله لعدم سماعه من يجيء إليه راغبا في عطاياه فهو يحقق أماني من يفد إليه، وصور المكان الذي يعيش فيه الممدوح في صورة من يعقل ويدرك حقائق الأشياء فالمكان يفرح بقدوم السائلين حتى كادت عراص مغانيه تسير إلى كل طالب حاجة، ولم تقتصر عطاياه على فريق من الناس بل عمت عطاياه الشريف والوضيع ولم تكن وقفا على أحد.

ومن الصور السابقة أدرك أن أبا تمام " كان مغربا في تصويره، وأنه عني بجانب التشخيص في هذا التصوير ونقل المعنويات ماديات ،وليس ذلك في نظري مما يعاب به فنه، وأن من عاب هذا الفن من النقاد نظر إليه على أنه استعارة وقاسها بمقياس القرب، والمناسبة وإن لم يكن هذا المقياس مرضيا من جميع النقاد، وحتى يتحقق الشمول في النظرة كان يجب تناول الصورة الشعرية

(١) ديوان أبي تمام ج١ ص ٢٠٤ .

كلها، وعدم الاقتصار على إحدى الأدوات التي استخدمت فيها"[1] ويصور أبو تمام كرم الممدوح بالبحر المتلاطم الأمواج حينما يقول:

يَمِـينُ مُحَمَّـدٍ بَحْـرُ خِضَـمُّ طَمُـوحُ المَـوجِ مَجْنُـونُ العبـابِ
تَفِـيْضُ سَماحـةً والمُـزْنُ مُكْـدٍ وتَقْطَعُ والحُسَامُ العَضْبُ نَابِ[2]

اعتمد الشاعر في الصورة السابقة على التشبيه البليغ المحذوف الوجه والأداة ليصف يمين ممدوحه بالبحر ثم وصف هذا البحر بصفات ثلاثة وهي الخضم، وطموح الموج، ومجنون العباب، وهذه الصفات التي ألحقها بالمشبه به تثري التشبيه وتعلى من قدر هذا البحر الهادر بالأمواج فقد أفرط البحر في حركته وتكاثفت أمواجه وكل ذلك يسهم في إبراز كرم الممدوح وخروجه عن حد الاعتدال فقد عم عطاؤه جميع البرايا وفاق كل شيء .

ويستلهم الشاعر صورة الكرم من القرآن الكريم حيث حذر الله ﷻ من إنفاق المال وتبذيره ويأبى الممدوح إلا الإسراف والتبذير في قوله:

لـهُ خلـقٌ نَهَـى القـرآنُ عَنْـهُ وذاكَ عطـاؤُهُ السَّـرَفُ البِـدَارُ
ولَمْ يـكُ منـكَ إصـرارُ ولكـنْ تَمَـادَتْ في سَـجيَّتِها البِحَـارُ
يَطِيـبُ لجـودهِ ثَمَـرُ الأمـاني وتَـروى عِنْـدَه الهِمَـمُ الحِـرارُ[3]

لجأ الشاعر في رسم هذه الصورة إلى الرمز فالخلق الذي نهى القرآن عنه هو تبذير المال، وإنفاقه في غير موضعه، وهذا الخلق طبيعة وسجية في نفس الممدوح فلم يطق صبرا على منع ماله؛ لأن نفسه تغالبه وطبعه يثنيه عن التوسط في بذل المال فيبذر في إنفاقه من غير قصد، ولا تعمد، وأدت الكناية دورها في هذا النص في قوله :" له خلق" كناية عن كرمه الزائد عن الحد، والصرف البدار، ولم يك منك إصرار، وخلال هذه الصورة ألحظ قوة خيال الشاعر الذي استقى هذه الصور من القرآن الكريم، بعد تجربة معاشة حقا.

(١) الشعراء المحدثون في العصر العباسي د / العربي حسن درويش ص ١٣٥ .
(٢) ديوان أبي تمام ج١ ص ٢٨٣ .
(٣) ديوان أبي تمام المجلد الثاني ص ١٥٦ .

والصورة جزء من التجربة التي يعيشها الشاعر، إذ لا بد للشاعر أن يكون قد رأى أو أدرك حسا ومعنى ما استطاع أن يتخيله. وهذا يعني أن الشاعر فقه المعاني الواردة في القرآن الكريم، واختار منها ما يتناسب مع تجربته.

ويربط الشاعر بين الممدوح والغيث برباط فني حميم ولعل اختيار كلمة الغيث توحي بمدى حاجة الناس إلى نزول المطر الذي يغيثهم من الهلكة التي تنزلت بهم، وكذلك حاجتهم إلى الممدوح يغيثهم بكثرة عطائه لهم وفي ذلك يقول الشاعر:

أبا عليٍّ أنتَ وادي النَّدى الـ أحـوَى ومَغْـنَى المُكرمـاتِ الأنـيسْ
البيتُ حيثُ النجمُ والكفُ حَيْـ ثُ الغيثُ في الأزمةِ والدارُ خيسْ[1]

لقد رسم الشاعر للممدوح صورة نفى عنه البخل ووصفه بالكرم وصور ذلك بكسوف الشمس والقمر فالكسوف فيهما أشد شناعة من كسوف الكواكب الأخرى وهو في الدنيا جنة للمحتاجين، وله إبل كانت تتنافر منه إذا رأته لأنه يعمل فيها السيف ليقري الضيوف فلما ألفت هذا منه سكنت إليه، وصارت لا تتنافر فكأن جوده وقر هامه وتلك صورة استعارية رائعة لجأ الشاعر فيها إلى جعل المال في صورة إنسان له هامة تفزع عند رؤية الممدوح وفي ذلك يقول: [بحر الطويل]

رأى البخـلَ مـن كُـلِّ فظِيعـاً فعَافـهُ علـــى أنَّـــهُ مِنْـــه أمَـــرُّ وأفظـــعُ
وكـلُّ كسـوفٍ في الـدَّراري شُـنْعَةٌ ولكنَّـهُ في الشـمسِ والبـدرِ أشـنعُ
مَعَـادُ الـورى بَعْـدَ المماتِ وسَـيْبُهُ مَعَـادُ لنـا قبـلَ المماتِ ومَرْجِـعُ
لـهُ تالِـدُ قـد وقَّـرَ الجـودُ هامَـهُ فقـرَّتْ وكانـتْ لا تـزالُ تَفْـزعُ
إذا كانت النُّعْمَى سَلُوباً من امرئٍ غَـدَتْ من خليجي كفِّه وَهْيَ مُتْبَـعُ
وإن عشرتْ سُـود الليـالي وبيضُـها بوحدتِـــه ألفيتَهـــا وَهْـــيَ مَجْمَـــعُ
وإن خفـرتْ أمـوالَ قَـوْمٍ أكفُّهـم من النيلِ والجَدْوى فكفَّاهُ مَقْطَعُ[2]

(١) ديوان أبي تمام المجلد الثاني ص ٢٧٥ ..
(٢) السابق ص ٣٢٧ .

إن الكناية بجانب الاستعارة تساعد على رسم صورة للممدوح الكريم فقوله: "من خليج كفه" كناية عن كثرة هذه النعم وتتابعها ، وقوله: "سود الليالي كناية عن الشدة التي حلت بالناس، وبيضها كناية عن الرخاء وبحبوحة العيش التي ينعم فيها وقوله: "فكفاه مقطع" كناية عن إنفاقه المال وعدم محافظته عليه.

ويصور أبو تمام الممدوح في صورة بناها من البيئة البدوية فالمكرمات في عهد الممدوح عادت بزلا وقد كانت قبله بنت مخاض والظلام انبثق النور منه عندما شاهد الممدوح والمكرمات شخصها الشاعر في صورة إنسانية فأصبحت راضية عن الأفعال التي يقوم بها الممدوح والندى أصبح قاض يحكم بين الناس فحكم للممدوح ورضي عنه وهذه الصورة أبدع أبو تمام في عرض جزئياتها عندما قال :

عادتْ المكرماتُ بُزلاً وكانتْ ... أُدخلتْ بَيْنَهـا بنـاتُ مخـاضِ
كمْ ظلامٍ عن العُلى قدْ تجَلَّى ... بِـك والمكرمـاتُ عنـك رواضِ
أيُّ ذي سُؤددٍ يناويـكَ فيـهِ ... ظالِمـاً والنـدى بِـذلكَ قـاضِ[1]

إن أبا تمام يلح على المعاني ويولدها وقد يخترعها اختراعا ولذا قال ابن الأثير عن هذه الظاهرة في شعر أبي تمام :" وقد قيل إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني وقد عددت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك وما هذا من مثل أبي تمام بكبير فإني عددت معانيَّ المبتدعة التي وردت في مكاتباتي فوجدتُها أكثر من هذه العدة، وهي مما لا أنازع فيه، ولا أدافع عنه "[2]. مما سبق ندرك أن صورة الممدوح الكريم جاءت عند أبي تمام في معارض مختلفة وهي صورة السيل، وصورة الغيث وصور مستمدة من التشخيص والتجسيد وصور تشبيهية، وصور كنائية وصور مستمدة من البيئة البدوية، وقد نظم هذه الصور بعناية

(١) ديوان أبي تمام ج٢ ص ٣١٤ .
(٢) المثل السائر لابن الأثير قدمه وعلق عليه د/ أحمد الحوفي ود/ بدوي طبانة القسم الثاني ط دار نهضة مصر ط الثانية ص ٢٣ .

فائقة، وفكر ثاقب ،وصناعة عكف عليها صاحبها فجاءت في أبهى صورة، وأحسن زينة.

أما صورة الممدوح بالكرم عند ابن خفاجة الأندلسي فقد تنوعت وحظيت بعناية كبيرة؛ لأن الكرم من الصفات النفسية التي نالت عناية الشعراء، فتفننوا في وصفها وهو" من الخصائص الخلقية في الإنسان قد تجد في المنشأة والتربية ما ينميها ويجعلها طابعا أساسيا فيه وقد تجد من العوامل ما يؤثر فيها ويجعلها تقل أو تتلاشى"(١) وقد أجاد ابن خفاجة في وصف يد الممدوح بصفتين مختلفتين الأولى الكرم والأخرى البطش بالأعداء وفي هذا يقول: [بحر الطويل]

عليـــهِ يمـــينُ أنْ تفـــيضَ يمينُـــهُ وأن لاَ يَغُضَّ السيفُ جفناً على وِتْرِ
يَعُبُّ عُبابَ البحرِ في السلمِ والوغَى ببذلِ اليدِ الغراءِ و الفتكةِ البكرِ(٢)

اعتمد ابن خفاجة في رسم الصورة السابقة على الاستعارة في قوله: "تفيض يمينه" وجاءت الكناية في قوله: "اليد الغراء كناية عن الكرم، والفتكة البكر، كناية عن فتكه بعدوه، وإصابته منه مقتلة عظيمة والجناس ورد في قوله: "يمين ويمينه" والطباق في قوله: "السلم، والوغى" والمقابلة بين بذل اليد الغراء، والفتكة البكر، وصور السيف بإنسان يغض جفنه حياء ، ولكنه لن يغض جفنه حتى يثأر من عدوه وهذه الصورة جمعت بين المتناقضات ليقارن متلقي هذا الابداع بين أمرين مختلفين غاية الاختلاف ويصدران من شخص واحد.

(١) قطوف من ثمار الأدب نصوص من العصر الجاهلي إعداد نخبة من أساتذة قسم الأدب والنقد في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية ط ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م ص ١٢ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ت السيد مصطفى غازي المدرس بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية ط دار المعارف سنة ١٩٦٠ م بالإسكندرية ص ٢٥ .

ويصور ابن خفاجة كرم الممدوح في تلك الصورة التي رسمها لرجل حل الفقر بساحته فهو صفر الكف كناية عن شدة حاجته إلى المال، وقد عبثت به الأفكار، وضاقت الدنيا من حوله وفجأة يدعوه الممدوح ليفد عليه، وينال من نعمه البكر التي لم يلمسها أحد قبله، وفي ذلك يقول: [بحر الكامل]

ولـرُبَّ صِـفْرِ الكـفِّ هـاذٍ بـالمُنَى ... كَلِـف بـأطوارٍ مـن الأوطَـارِ
قـد أسـبلَ الظلمـاءَ سِـتراً دُونـهُ ... وخـلا بأبكـارٍ مـن الأفكـارِ
صـاحتْ بـه الأيـامُ ترفـعُ صـوتَها ... فكأنمـا نادتْـهُ خلـفَ جِـدارِ
دع عنكَ ثِيّبَ كُلِّ نُعْمَى والتمسْ ... مـنح ابـن إبـراهيم فَهْـيَ عَـذَارِ
وارتـع بحيـثُ تُصَـوبُ أرضَـكَ دِيْمَـةُ ... ليمـينِ يُمـنٍ أو يسـارِ يَسَـارِ
هطلاءُ تضـحكُ كُـلُّ زهـرةِ صـفحةٍ ... عنهـا وتَعْشِـبُ كُـلُّ سـاحةِ دَارِ[1]

اعتمد ابن خفاجة في الصورة السابقة على الخيال الخلاق الذي كون جزئيات هذه الصورة وأنطق من لم ينطق بالتشخيص وهو "تشخيص المعاني المجردة ومظاهر الطبيعة الجامدة في صورة كائنات حية تحس وتتحرك وتنبض بالحياة"[2] فقد عرض الصورة السابقة في شكل قصة ليبث خلالها كرم ممدوحه وقد سلك نفس الطريقة التي سلكها سلفه أبو تمام حيث جمع بين التشخيص والاستعارة والكناية والجناس فغدت صورته خلقا فنيا جديدا ومن آيات سيره على منوال أبي تمام كلفه بفنون البديع وذلك في قوله: أطوار، والأوطار، وأبكار والأفكار، ويمين ويمن، ويسار يسار، وجدار جدار، وقد أدرك هذه الظاهرة صاحب كتاب بلاغة العرب في الأندلس فقال: "فإنه يشبه أبا تمام من حيث الميل إلى تنميق عباراته الشعرية والتعمل قليلا أو كثير في ذلك والعناية بذكر أنواع البيان والبديع ولكنه مع هذا غير ظاهر التكلف كأن

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٨ .
(٢) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د/ علي عشري زايد ص ٧٦ .

ذلك جاءه عفوا أو كأنه سليقة له وهو على ما يظهر من شعره من المتشيعين لطريقة أبي تمام المعجبين بها"[١].

ومن صورة الممدوح الكريم قول ابن خفاجة الأندلسي: [بحر المتقارب]

سَنِيُّ العطايَا حَفِيُّ التحَايَا ... عَلِيُّ السجايَا وفي الذِّمَمْ
تنوّر بالبشرِ أخلاقُهُ ... ويجري بكفَّيهِ ماءُ الكَرَمْ
ويهتزُّ للضيفِ خُدَامُهُ ... وتُعْدِي سجايَا الموالِي الخدمْ
فزرهُ تَرِد روضةً غضَّةً ... وحَيِّ تجِدْ هِزةَ الغصنِ ثَمْ[٢]

اعتمد ابن خفاجة في تكوين الصورة السابقة على الكناية في قوله :"سني العطايا، وحفي التحايا، وعلي السجايا ، وجسد المعنويات عندما جعل للكرم ماء يجري بكف الممدوح وأنهى الصورة بالكناية عن نسبة وهي سرور خدام الممدوح بقدوم الضيف وذلك كناية عن سروره هو وجسد الشاعر السجايا في صورة شيء يعدي واهتزاز الممدوح للضيف وفرحه لقدومه مأخوذة من قول أبي تمام السابق الذكر:[٣]

وإذا المواهب أظلمت ألبستها ... بشرا كبارقة الحسام المخدم

والشاعر في الصورة السابقة يغري المتلقي بالقدوم على هذا الممدوح وحتى يتم له ما أراد رسم لهذا الممدوح صورة ملؤها الحب والفرح بقدوم من يفد إليه فهو يعطي الهبات العظيمة ويحتفي بمن يفد إليه وتكاد الموسيقا الداخلية للبيت الأول أن تشارك في هذا العرس الأخلاقي الجميل فالممدوح يتسم بأربعة صفات جاءت في البيت الأول لتمهد بقدوم هذا الضيف في هيئة موسيقية جميلة ذات تقطيع موسيقي عظيم في قوله سني العطايا، حفي التحايا، علي السجايا، وفي الذمم، والياء أتت في نهاية كل وقفة موسيقية لها مغزاها فهي تثير في النفس الاطمئنان والسكينة وتوحي بالأمن الاجتماعي

(١) بلاغة العرب في الأندلس د/ أحمد ضيف ص ٢١٥ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٤٦ .
(٣) ديوان أبي تمام المجلد الثالث ص ٢٥٣ .

الذي يسعى كل إنسان في هذه الحياة للوصول إليه وتلتقط هذه الصورة أمرين هما: صورة الممدوح ، وصورة خدمه، وفي الصورة الأولى نجد كلمة ينوء تعبر عن ثقل هذا الأمر وشدته ثم تقديمه للجار والمجرور في قوله: بالبشر أخلاقه نجد المسند تقدم على المسند إليه ليفيد الاهتمام به وقوله : ينوء جاءت في صيغة الفعل المضارع التي توحي باستمرار هذا الأمر وتأتي حركية الصورة في قوله ويجري بكفيه ماء الكرم، وبين ينوء ويجري بون شاسع و يعزز تلك الصورة ويؤكدها وتتلوا هذه الصورة المتحركة صورة أخرى متحركة وهي اهتزاز خدمه للضيف وترحيبهم به لترسخ جو الاطمئنان في نفس من يفد إليه ، ويأتي الأمر وجوابه في قوله : فزره تزر روضة غضة؛ ليبرز الغاية المرجوة من تلك الزيارة وهو العطاء الذي لا يعدله عطاء ،ومما سبق ألحظ أن لشعر الخفاجي خيال وثاب يجمع شتات الصورة ويؤلف بينها وأن " الشعور الإنساني محرك من محركات الصورة حيث ينزع غلاف الأشياء وجمودها باعثا فيها المعاناة والحنين وكذلك الشاعر حين يتولى الأشياء بأعصابه ويخلع عيها من ضميره"[1] ويدبج ابن خفاجة الأندلسي لوحة للممدوح ظهرت على هذا النحو في قوله: [بحر الطويل]

غشيتُ به أندَى من المُزنِ راحةً ... وأطيبَ أفياءً وأمرعَ مرتعا
طمى الجودُ في يُمْنَاهُ بحراً وربما ... تدفقَ في أرجائِها فتدفَّعا
وأعدى نداهُ الغيثَ فانهلَّ واكِفاً ... وحسبُكَ من سُقيا أن انسجما معا
فيا شائمي برقٍ تَوضَّحَ مَوْهِناً ... وقعقعَ إرعادا بنجدٍ فأطعما
إذا كفَّ من قطريكُمَا عارِضُ النَّدى ... وراقكُما برقُ البشاشةِ فاربعا
فإن أبا إسحاقَ أخصبُ تلعةً ... وأشهى نَدَى ظِلٍ وأعذبُ مَكْرعَا[2]

(١) الصورة الفنية في شعر مسلم ابن الوليد د/ عبد الله التطاوي ص ٤٤ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٥٨ .

حلق ابن خفاجة بخياله في استقصاء جوانب هذه الصورة، واعتمد على المبالغة المقبولة في عرضها إذ جعل جود الممدوح وكرمه بحرا تدفقت أمواجه، وكثرت واندفعت في كل مكان، وجاء بصيغة أفعل التفضيل في بداية هذه المقطوعة ونهايتها ؛ليثبت خلالها تفوق الممدوح على السحاب والظلال والأماكن الخصبة التي يقصدها الناس، وصيغة أفعل التفضيل تدل على اشتراك اثنين في صفة ما مع زيادة أحدهما على الآخر فيها، وقد ربط الشاعر بين الممدوح والسحاب، والبحر، والأشجار اليانعة، والأماكن المجلوة بالخضرة؛ ليثبت تفوق الممدوح على كل هذه العطاءات التي يبتهج الناس بها ويحيون حياة كريمة بوجودها ويشخص الشاعر الغيث؛ ليشارك الممدوح في كرمه، ويجعل عدوى العطاء تنتقل من الممدوح إلى الغيث، وتأتي المفارقة العجيبة؛ لتسجل هطول أنهار العطاء من الممدوح والغيث معا في وقت واحد، وهذه العلاقة الحميمة التي جمعت بين الممدوح والغيث جعلت الناس يستغنون بعطاء الممدوح عن عطاء الغيث، وينهي هذه المقطوعة بأفعل التفضيل الوارد في قوله : أخصب تلعة ، وأشهى ندى ظل ، وأعذب مكرعا وقبل أفعل التفضيل يأتي بالجملة الاسمية المؤكدة بإن؛ ليوحي خلالها بتحقق هذه الخصال الحميدة في الممدوح وتفوقه فيها على غيره فقد عاش في كنفه وشاهد تلك الصفات عن كسب ولذا تغنى بأمجاده في ساحات السلم والوغى.

وألحظ في هذه الصورة أن ابن خفاجة بناها من عناصر الطبيعة في قوله: "المزن، أفياء، والبحر المتدفق، والغيث والبرق والرعد والندى، والشاعر مغرما بالطبيعة الأندلسية كلفا بها فقد نشأ في أحضانها وغذي من نميرها وشاهد مساقط الأمطار فوق تلالها ولذا فلا غرو من أن ينسج صوره ويغزلها من مشاهداته لهذه الطبيعة الفاتنة التي أسرت لبه ثم أليس هو القائل عن هذه الطبيعة الوارفة الظلال:

يـــا أهـــلَ أنـــدلُس لله درُّكُـــمُ ... مـــاءٌ وظـــلٌّ وأنهـــارٌ وأشـــجارُ
مـــا جنَّـــةُ الخلـــدِ إلا في ديـــارِكُمُ ... ولـــو تخـــيَّرتُ هـــذا كنـــتُ أختـــارُ

لا تخشُوا بعدَ ذا أن تدخلوا سَقراً فليسَ تُدخَلُ بعدَ الجنَّةِ النارُ[1]

وابن خفاجة الأندلسي من الشعراء " الذين ربتهم الطبيعة بجمالها وهذب ادراكه جمال الوجود فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية إلى معالجة التعبير عن هذا الجمال وانغمس انغماسا في ذلك حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع ولا يعرف غير هذه المعاني الجميلة"[2].

ومن الصور التي رسمها ابن خفاجة للممدوح الكريم قوله: [بحر الكامل]

فافزعْ إلى قاضِي الجماعةِ رهبةً تَضعِ العنانَ بخيرِ راحةِ سَائِسِ
واستسقِ مِنهُ إن ظمِئتَ غمامةً يَخْضَرُّ عَنْهَا كُلُّ عُودٍ يَابِسِ
وإذا رويتَ بماءِ ذاكَ المُجتَلَي فحذارِ من ألهوب ذاك الهَاجِسِ

ما زالت صورة السقيا والغمام هي الصورة الأثيرة لدى ابن خفاجة الأندلسي فقد جعل الممدوح الكريم مفزع كل خائف فعنده تطمئن النفس وتسكن بواعث الخطر، ويحل العطاء ليروي نفس الوافد من هذا العطاء وينعم من جدواه.

ومما سبق ندرك أن صورة الممدوح الكريم عند ابن خفاجة الأندلسي جاءت في معارض مختلفة من التشبيه والاستعارة والكناية والجناس والطباق والمقابلة وقد اتكأ على عناصر الطبيعة فألف منها معظم صوره.

ثانيا: صورة الممدوح الشجاع بين الشاعرين

إن الشجاعة من الصفات التي تحلى بها العربي في باديته وحاضرته فالشعراء يدورون في فلك تلك الصفة ليرسموا للممدوحين صورا عديدة تسطر مجدهم وعزهم ومنعتهم وغلبتهم على أعدائهم وخوضهم المعارك الشرسة في سبيل العز العربي وعدم خضوعهم لأعدائهم مهما كلفهم ذلك من النفس والنفيس وقد أعجب أبو تمام بشخصيات كان لها في مضمار الشجاعة أثر

(١) ديوان ابن خفاجة شرحه وضبط نصوصه وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ط دار القلم بيروت لبنان ص ١١٣ .
(٢) بلاغة العرب في الأندلس د،/ أحمد ضيف ص ٢١٣ .

عظيم تحدث عنه القاصي والداني فتناول هذه الشخصيات في قصائد صورت العز العربي والمجد الزاخر في صفحات تاريخنا العظيم، ومن الصور الجيدة التي رسمها أبو تمام لأحد للممدوح قوله: [بحر الكامل]

انْظُرْ وإيَّاكَ الهوى لا تُمْكِنَنْ ... سُلطانَهُ من مُقلَةٍ شَوسَاءِ
تعلمْ كمْ افترعتْ صدورُ رماحِهِ ... وسيُوفِه من بلدةٍ عَذْراءِ
ودعا فأسمعَ بالأسنَّةِ واللُّهى ... صُمَّ العِدَى في صَخْرةٍ صَمَّاءِ
بمجامع الثَّغرينِ ما ينفكُّ من ... جيش أزبَّ وغارةٍ شَعْواءِ
من كُلِّ فرجٍ للعدوِّ كأنَّهُ ... فَرْج حِمىً إلا من الأكْفَاءِ

اعتمد الشاعر في رسم هذه الصورة على الحواس وذلك في قوله: "انظر، وفأسمع، وصم العدى، وغارة شعواء، وفرج حمى، وطالب المتلقي أن يجرد نظره وفكره من الهوى حتى يستطيع أن يشاهد الحقيقة ويعاينها ، ويحكم نظره الصحيح في صورة هذا الممدوح الذي بسط سلطانه على أعدائه ،وافتتح بلاد لم تفتتح من ذي قبل ،ولم تمتد إليها الأيد ، وحتى يبسط هذه الحقيقة لجأ إلى الاستعارة التي انتقى مفرداتها من عالم المرأة وهي من أحب الأشياء إلى الرجال كقوله بلدة عذراء وصفة العذرية من الصفات الخاصة بالمرأة، ونسب إلى الممدوح أنه أول من افترع هذه المدينة؛ ولذا جاء بقوله: كم، وافترعت، وعذراء، وجاءت الكناية في قوله: صم العدى، وصخرة صماء ؛ ليدل على قوة خصمه وشجاعته، وأنه لا يسمع إلا نداء الحرب فلا يخضع لصلح ولا لغيره والتعبير بالصخرة الصماء كناية عن قوتهم وعزتهم ومنعتهم من أن تمتد إليهم يد أعدائهم ولكن هذا الممدوح أخضعهم وذل رقابهم فأذعنوا لسلطانه وتحدث الشاعر عن جيش الممدوح وشبه الجيش بالأزب في قوله جيش أزب وهذا يدل على كثرة عددهم، ورماحهم وهذا الجيش يتسم بسمتين الأولى: الثبات عند اللقاء والغارة الشعواء التي يشنها على العدو فلا يبقي منهم ولا يذر شيئا وقد شبه الشاعر الثغرة بين جيش الممدوح وجيش العدو بفرج حمي إلا من الأكفاء مشتقة من مفردات عالم المرأة ،ولعل أبا تمام أراد أن يستميل قلب المتلقي

فعرج بخياله إلى مفردات خاصة بالمرأة ليبني منها صوره ويستحوذ على قلب سامعه وقد جمع بين صورتين متناقضتين صورة الحرب وما فيها من قتل وتشريد ودماء تطاير وصورة المرأة بما فيها من سكن وعشق ومحبة.

ومن صورة الممدوح الشجاع قول أبي تمام: [بحر الكامل]

وإذا تشاجرتِ الخُطُوبُ قرَيْتَها جَدَلاً يَفُلُّ مضارِبَ الأعداءِ

يا غايةَ الأدباءِ والظرفاءِ بلْ يا سيّدَ الشعراءِ والخطباءِ(١)

صور أبو تمام الخطوب بأشخاص تتشاجر وصيغة التفاعل تدل على التجاذب بين أطراف عديدة وفي غمرة هذا التشاحن يظهر الممدوح ليقري الخطوب وهذا إغراب في الصورة فالخطوب لا تقرى والقرى ليس طعاما وإنما جدلا يقطع مضارب أعداء الممدوح وصورة التشاجر تكون بين أغصان الشجر ولكن الشاعر نقلها إلى الأحداث الجسام التي يتداخل بعضها ببعض وتحتدم الأمور وتضيق ثغراتها وإذ بالممدوح الشجاع يحل عقدها بثاقب فكره وجميل رؤيته للحوادث ، والصورة مبنية على المتناقضات بداية من تشاجر الخطوب وقريتها جدلا ، ويفل مضارب الأعداء والجامع بين هذه المتناقضات شجاعة الممدوح الذي اخذ بتلابيب هذه الأمور ليصل إلى ثناء الناس عليه ودعوتهم إياه ليكشف ما نزل بهم.

ومن صور الممدوح الشجاع قول أبي تمام : [بحر الطويل]

فتىً عِندَه خيرُ الثوابِ وشرُّهُ ومِنهُ الإباءُ المِلْحُ والكرمُ العَذْبُ

أشَمُّ شَريكيُّ يَسِيرُ أمامَهُ مَسِيرةَ شهْر في كتائبِهِ الرُّعبُ

ولمَّا رأى تُوفِيلُ راياتِك التي إذا ما اتلأبَّتْ لا يُقاومُهَا الصُّلْبُ

تولَّى ولمْ يألُ الرَّدَى في اتباعِهِ كأنَّ الرَّدَى في قَصْدِه هائمُ صَبُّ

كأنَّ بِلادَ الروم عُمَّتْ بصَيحةٍ فضَمَّتْ حَشَاهَا أو رغَا وَسْطَهَا السَّقْبُ

بِصاغِرةَ القُصْوَى وطمين واقْتَرى بلادَ قرنطاووسَ وابِلُك السَّكْبُ

(١) ديوان أبي تمام ج ١ ص ٣٨.

غدا خائفاً يستنجدُ الكتبَ مُذْعِناً عليـك فـلا رسـلُ ثنتـكَ ولا كُتْـبُ
وما الأسـدُ الضِّرغامُ يوماً بعاكِسٍ صـريمَتَه إنْ أَنَّ أو بَصْـبَصَ الكَلَـبُ[1]

جسد الشاعر للممدوح صورة جعلت عدوه يفر من أمامه تاركا بلاده تحت إمرة هذا الممدوح فالرعب جند من جنود الممدوح يصل إلى عدوه من مسيرة شهر، وهذه مبالغة عظيمة إذ لم تتحقق إلا لرسول الله ﷺ، ولعل الشاعر اقتبسها من الموروث الديني، ولكنه أخطأ في ذلك إذ كيف ينسب أمرا خص به الرسول ﷺ إلى أي إنسان آخر ، ومن الصور التي بدت في هذه اللوحة صورة الردى وهو أمر معنوي ولكن الشاعر جسده في صورة كائن حي يسير خلف أعداء الممدوح هائما يرغب في هلاكهم كما يهيم المحب بمحبوبه، ثم صور هذا الخطب الذي ألم بالروم من تلقاء الممدوح بالصيحة التي أهلكت ثمود قوم سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام، وقد جعل لهذه المدينة أحشاء في قوله " ضمت حشاها وجعل فيها السقب يرغو، وذلك كناية عن هلاك هذه المدينة التي قصدها الممدوح، ثم اختتم هذه اللوحة بصورة " توفيل " ملك الروم وهو يرسل الكتب خلف بعضها البعض راجيا السلام، ويتبعها بالرسل مستنجدا والذعر يحيط به من كل جانب ولكن لا جدوى من كل هذه المحاولات اليائسة فالأسد لا يترك فريسته مهما تذرعت بالفرار ؛ولهذا اختار الشاعر للممدوح صورة الأسد ،واختار لعدوه صورة الكلب الذي يحرك ذنبه تقربا ومدارة إلى صاحبه فالممدوح لا يثني صريمته مهما أوغل عدوه في خداعه لأنه يفطن إلى حقائق الأمور فلا تثنيه الحوادث عن تحقيق ما يصبو إليه من أمجاد.

ومن صور الممدوح الشجاع قول أبي تمام :

تَـــرَاه إلى الهيجـــاءِ أوَّلَ راكِـــبٍ وتحـتَ صَـبير المـوتِ أوَّلَ نَـازِلِ
تَسرْبَلَ سربالاً من الصبرِ وارتدى بِعَضْـــبٍ في الكريهـــةِ قَاصِـــلِ
وقدْ ظُلِّلتْ عِقْبانُ أعلامِه ضُحى بعقبـان طَـيْرٍ في الـدماءِ نواهِـلِ

(١) السابق ١٨٩ .

أقامتْ مع الراياتِ حتى كأنَّهَا ... من الجيشِ إلَّا أنَّهَا لمْ تُقاتِلِ
فلمَّا رآهُ الخُرَّميُّون والقنَا ... بوبْلٍ أعالِيه مُغِيثَ الأسَافِلِ
رأَوْا مِنْه لَيْثَاً فابذعرَّتْ حُمَاتُهُم ... وقد حكمتْ فيه حُمَاةُ العوامِلِ(١)

وصف أبو تمام الممدوح بالشجاعة فجعله أول من يركب للحرب، وأول من يتعرض للموت، وكرر كلمة "أول " في البيت الأول مرتين ؛ليثبت للممدوح عن طريق الكناية الشجاعة والفروسية والبطش بعدوه. وقد عرض أبو تمام ذلك في صورة أدبية بدأها بالكناية في قوله: تراه إلى الهيجا أول راكب، وتحت صبير الموت أول نازل، وجسد أبو تمام المعنويات فجعل للموت سحابا أبيض تراكم هذا السحاب وكاد أن ينزل وأضاف صبيرا إلى الموت واختار كلمة صبير ليعبر بها عن المطر للدلالة على عظم هذا المطر الذي تجمع بعضه فوق بعض ليوحي بذلك إلى أن الموت ينهال فوق الرؤوس كالمطر الذي يتساقط فوق الرؤوس ،وهاتان الصورتان لا يستطيع أي إنسان أن يقاومها، ومع ذلك فالممدوح اول من ينزل في ساحات الوغى والموت يحصد الأنفس حصدا ، وجاءت الصورة الثانية لتعضد الصورة الأولى فقد تسربل الممدوح بسربال من الصبر وهذا التشخيص الذي نراه في هذه الصورة يزيد من جمالها فالصبر له سربال وقد لبسه الممدوح وارتدى عليه السيف القاطع الذي يجذ الرؤوس جذا، وعبر عن الحرب بلفظة "الكريهة " ليدلل على كره النفوس لها ومن أجل أن يكمل الصورة قال: "وارتدى" والارتداء يكون للثياب، وأما السيف فقد حمله وعبر بالارتداء؛ ليجعل من السيف رداء يحمي صاحبه من أذى الحر والقر؛ ولكي يدلل على عظم شجاعة الممدوح وأن القاصي والداني شهد له بالنصر على الأعداء في ساحات المعارك ذكر أن الطير قد شهدت له بهذه الشجاعة ووثقت في قدرته وعزيمته، وعلمت أن انتصاره على أعداؤه أمر متحقق الوقوع ولذا صحبت جيشه واثقة من انتصاره على عدوه فقد ألفت هذا

(١) ديوان أبي تمام المجلد الثالث ص٨١ .

الأمر منه وقد شبه البنود بالعقبان وجعل عقبان الطير تحلق حول الجيش وتحيط به من كل جانب مع الرايات التي ترفع حول الجيش وقد صور الرايات بالعقبان حتى تكتمل الصورة فعقبان فوق عقبان ،وهذه الصورة تؤكد على شجاعة الممدوح وقوة جيشه الذي انضم إليه فريق من الطيور الجارحة، ولما رأى الخرميون هذه الصورة سيطر الذعر على نفوسهم وأيقنوا أن هذا الليث قد فرق فلولهم وبدد شملهم ولا مناص لهم إلا الاستسلام أو القتل.

وأما ابن خفاجة الأندلسي فقد برع في رسم صورة الممدوح الشجاع إذ الشجاعة من الصفات التي يتيه الممدوح بها؛ لأنها رمز الرجولة الكاملة ،وبها يحافظ الممدوح على مجده فعندما يتعرض لخطر ينال منه يتحول إلى أسد هصور، وكانت الشجاعة مطلبا ضروريا لمن يعيش في بلاد الأندلس فالحرب بين المسلمين ونصارى الأسبان لم تنته، والصراعات على الحكم تؤجج الحروب الطاحنة، وسنقف على هذه الصور الرائقة لنشاهد ابن خفاجة، وهو يصور الممدوح فنراه يقول: [بحر الطويل]

وأبلجَ منصورِ اللواءِ إذا سَرَى ... أظلتْ عُقابُ النصرِ أجنحةَ النسْرِ
عليهِ يمينُ أن تفيضَ يَمينُهُ ... وألاَ يَغُضَّ السيفُ جَفْناً على وِتْرِ
يَعُبُّ عبابَ البحرِ في السِّلمِ والوغَى ... ببذلِ اليدِ الغراءِ والفتكةِ البكرِ
له فتكةٌ لو زاحَمَ الدهَر تحتهَا ... لعُدتْ به دُهْمُ الليالي من الشُّقرِ
وعزمُ يَرُدُّ الطودَ هداً ونجدةُ ... تَهُزُّ قدودَ السمرِ في الحُلَلِ الحُمْرِ
ووجهُ وضيءُ شفَّ عنهُ لِثامُهُ ... كما شَفَّ رقراقُ الغمامِ عن البدرِ
إذا لثمتْهُ بالمفاضةِ روعةٌ ... تراءَى هِلالُ منهُ يطلُعُ من بَحْرِ
سرى بين نُوَّار لزرقِ أسنَّةٍ ... حِدادٍ وأوراقٍ لراياتِهِ خُضْرِ
فهزتْ إليهِ عِطْفَهَا كلُّ رايةٍ ... تَهُزُّ عليهِ الغُصْنَ في الورقِ النضرِ[1]

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٥ .

إن ابن خفاجة يسجل للممدوح شجاعة نفسه وقوة جيشه ،ومصاحبة العُقَابِ له واثقة في انتصاراته على أعدائه، وهذه الصورة موجودة في الشعر العربي كله، وعند أبي تمام خاصة، وقد تحدثت عنها فيما سلف ذكره ولكن الجديد فيها عند ابن خفاجة أنه تحدث عن وجه الممدوح وهو في ساحة الوغى فوجده متهللا بالبشر والنور يكسوه والطير تحلق فوقه وهو يقسم أن تفيض يده بالعطاء وألا يغمد سيفه حتى يثأر من عدوه، وقد تعود على البذل والعطاء في السلم والوغى ففي السلم يبذل أعز ما عنده، وفي الحرب يفتك بعدوه ولو قدر للدهر أن يزاحم راية الممدوح لأصبحت الليالي الدهماء بيضاء ناصعة البياض، ثم اختار الشاعر صورة تماثل وجه الممدوح، وهي صورة البدر والغمام، وأما عزم الممدوح فق عبر عنه بالصورة الكنائية الواردة في قوله: "وعزم يذل الطود هدا وذلك كناية عن بأسه وشجاعته الفائقة ويتلو ذلك قوله: ونجدة تهز قدود السمر في الحلل الحمر، وذلك كناية أخرى تدل على شجاعة الممدوح وسرعة تلبيته لدعوة من يستغيث به والممدوح في ساحة الحرب يلبس درعه فيحجبه عن أعين الناس ويغطي جميع جسده ولا يبقى منه إلا شيء يسير يراه الناس، وهذا الشيء الذي يلوح من خلال الدرع هلال يسطع نوره من بحر وتلك صورة رائعة استخرجها الشاعر من بنات أفكاره فجاءت تكشف عن عظمة هذا الممدوح؛ لأنها جمعت صفاته في السلم والحرب، وقد جاءت روافد هذه الصورة من ثقافة الشاعر، وقاموسه الأدبي الذي جمع شتات هذه الصورة من الطبيعة وذلك في قوله: العقاب والنسر، والبحر، والطود، والغمام ، والبدر، والهلال، فالطبيعة جزء رئيس في حياة ابن خفاجة الأندلسي، وأما صورة الحرب فجاءت في قوله :السيف، والوتر والراية، والفتكة البكر، والسمر والدرع، وهكذا زاوج الشاعر بين صورة الطبيعة وصورة الحرب وألف منهما صورة للممدوح أظهرت بسالته ورباطة جأشه ، وشدة عزيمته ، التي تهد الجبال هدا، ويربط الشاعر بين صورة الحرب وصورة الطبيعة برباط فني حميم عندما التقط صورة للممدوح وهو يسري بين آلات الحرب وبين الحدائق الغناء فالرايات

أصبحت أوراقا خضراء تنظر إلى الممدوح نظرة حب وتقدير وتحنو عليه حنو الأغصان وهي تتمايل في الخمائل والندى يتساقط عليها ، وهذه الصورة جمعت بين أمور متناقضة في الظاهر ، ولكن خيال الشاعر ألف بينها وحقق الانسجام التام لها.

ومن صورة الممدوح الشجاع قول ابن خفاجة الأندلسي :

و يـا ربَّ جـيشٍ للعـدوِّ كأنَّـهُ	عُبَابُ خِضَمٍ قد طَمَى يَتَدفَعُ
عرضتَ لـهُ والليـثُ دونـكَ جـرأةً	فأجفـلَ إجفـالَ النعامَـةِ يَجْـزعَ
ولقيتْـهُ ريـحُ للمهابـةِ بـارحُ	فـأقلعَ إقـلاعَ الغمامـةِ تَقْشَـعُ
وأدبـرَ لا يُلْـوي علـى مُتعـذِّرٍ	حِـذارَ فـتىً يَسْـرِي إليـه فيسـرعُ
وقد جالَ دمعُ القطرِ في مقلةِ الدجى	ولفَّتْ نواصي الخيلُ نكباءُ زعزعُ
لـهُ مِـن صـدورِ الأعوجيَّـةِ والقـنى	شـفيعُ إلى نيـلِ الأمـاني مُشَـفَّعُ
وظفَّـرهُ في مُلتقـى الخيـلِ سـاعدُ	ألـفٌ وقلـبُ بـين جنبيـهِ أصْـمَعُ

كون ابن خفاجة هذه الصورة من التشبيه والاستعارة والتشخيص والكناية، وقد تآذرت هذه العناصر مع الألفاظ الحقيقية في إبراز صورة الممدوح الشجاع فقد نكر الشاعر كلمة جيش في قوله: و يا رب جيش ثم جاءت أداة التشبيه كأن دون غيرها للدلالة على قرب صورة المشبه من صورة المشبه به في قوله: كأنه عباب خضم، وعبر بالفعل طمى مسبوقا بأداة التحقيق قد للدلالة على صحة ما يقول، ولجأ الشاعر إلى الدلالة على شدة التدافع فضعف عين الفعل في قوله: "يتدفع "ووصف جيش العدو بهذه الصفات له دلالتان أولهما أنه أنصف عدو الممدوح حينما عرض لتصوير قوة عددهم، والأخرى للدلالة على قوة هذا الممدوح وشجاعته التي فرقت جموع عدوه، ثم لجأ الشاعر إلى أسلوب القصر في قوله: "عرضت له"؛ ليدل على اختصاص الممدوح بمثل هذه الأمور العظام التي لا يقدر عليها غيره ، وجاءت الجملة الحالية في قوله: والليث دونك جرأة؛ لتوضح الفرق بين الممدوح والأسد في مثل هذه المواقف فشجاعة الممدوح فاقت شجاعة الأسد، ثم جاء الفعل الماضي معطوفا بالفاء

في قوله: "فأجفل"؛ لتدل على سرعة فرار العدو عندما شاهد الممدوح في ساحة الحرب ،وأكد هذا الفعل بذكر مصدره في قوله:" فأجفل إجفال النعامة" وهذه كناية عن فراره وزعره وخوفه من ملاقاة الممدوح، وأنهى البيت بالفعل المضارع "يجزع" للدلالة على استمرار هذا الجزع في مستقبل العدو ولذا أصبح الجزع مصاحبا لهم في مسيرة حياتهم يقض عليهم مضاجعهم ولم ينتقل الشاعر من هذه الفكرة وهي فرار العدو لدى مشاهدته للممدوح ،وإنما أكدها بهذه الاستعارة الواردة في قوله :"ولقيته ريح المهابة بارحا " فقد جعل للمهابة ريحا وشخص هذه الريح وجعل لها أثرا عظيما في فرار العدو من أمام الممدوح ،وضعف القاف في قوله" ولقيته " للدلالة على عظم ما قام به الممدوح ؛لأن زيادة المبنى تزيد في زيادة المعنى رسوخا ،ولذا جاءت النتيجة في قوله :" فأقلع إقلاع الغمامة تتقشع فعطف الفعل بالفاء ومجيء مصدر الفعل إقلاع بجوار الفعل يؤكد أن هذه الأحداث جاءت سريعة، وأن صورة السحابة التي تطاردها الرياح الشديدة، وتغرقها هي نفسها جيش العدو الذي فرقته مهابة الممدوح ،وجعلته كأن لم يكن سحابة تعرضت ثم انقشعت ولم يبق لها أثر ،وما زال الشاعر يؤكد هذه الفكرة في البيت التالي في شكل ألفاظ حقيقية لكنها ترسم مشهد الفرار وتصوره خير تصوير، ولذا عبر الشاعر بألفاظ لها دلالات إيحائية وذلك في قوله: "وأدبر لا يلوي على متعذر" فلفظة أدبر من الألفاظ التي تحكي المشهد كأننا نراه وصورة المدبر وهو يولي ظهره لعدوه ويفر من ميدان المعركة مهزوما مخذولا ،وليس له عذر في الفرار غير الخوف من الممدوح، ولذا جاء الشاعر بصيغة من صيغ المبالغة وهي فعال حذار ونكر كلمة فتى للدلالة على عظم هذا الفتى فقد استوى التعريف والتنكير هنا؛ لأنه أصبح معلوما لدى العدو وسواء نكر الاسم أم عرفه فبمجرد سماع الكلمة ينصرف الذهن إلى الممدوح فأفعاله صارت معروفة ومعلومة لدى عدوه فلا يقدر عليها غيره.

ومن صور الممدوح الشجاع قول ابن خفاجة:(١)

لـه هِمَّـةٌ تُمْلـى عليـهِ وعزمـةٌ ... تَخُطُّ بـأطرافِ الرمـاحِ وتَمْشُـقُ
تجـرُّ بِـهِ في حومـةِ الحـربِ حيـةً ... تُنَضْنِضُ أو فتخاءُ هناكَ تحلقُ
وتـنفُخُ ريـحُ النصـرِ في قـبسٍ بـهِ ... فيخـرقُ أقطارَ العَجَاجِ ويحرقُ
وينطِقُ عـن سـيفٍ بكفيـه صـارمٍ ... ويرمُـقُ عـن سَـهْمٍ بجفنيـهِ يَمْـرُقُ
ويَصْدَعُ شملَ الليل و الخيلِ كلما ... بـدا فلـقُ منـه يطـلُ وفيلـقُ

بدأ ابن خفاجة هذه الصورة بأسلوب القصر في قوله:" له همة " وهذا يعني أن تلك الإرادة خاصة به ولا يقدر على مجاراته أحد، وشخص الإرادة في صورة استعارية عندما صورها بإنسان يملي على الممدوح ما يتمنى تحقيقه، وجسد العزم في قوله: "وعزمة تخط بأطراف الرماح"، وجاءت الكناية في قوله "تمشق" وهي كناية عن سرعة طعنه للأعداء، وبين الشاعر صورة الممدوح في ساحة المعركة وعبر بالفعل المضارع وهو: "تجربه" ليفيد استمرار هذه التجربة والتجربة تعنى المعايشة والمخالطة لهذا الشخص في ساحات المعارك، وميدان التجربة صار مقصورا على ساحات المعارك، وجاءت النتيجة لتؤكد على شجاعة الممدوح في الحروب فهو مثل الحية لا يستقر في مكان واحد؛ لقوة نشاطه أو عقاب يحلق في أي مكان يرغب في الوصول إليه، ويأتي البيت التالي في صورة استعارية حيث جعل للنصر ريحا تنفخ فتحرق الغبار المتطاير في ساحة المعركة ثم جاءت الكناية لتسجل قوة شخصية الممدوح الذي يحسم الأمور وذلك في قوله: "وينطق عن سيف بفكيه صارم" وذلك كناية عن قوة حجته ورجان رأيه، وجاءت الشطرة الثانية لتدلل على بعد نظر الممدوح وحسن تقديره للأمور وإصابته للهدف الذي يرمقه بجفنيه ،ويختتم هذه الصورة بهذا الخيال الرائع حيث صور لليل شمل قد صدعه الممدوح والصدع لا يكون للأمور المعنوية ولكن الشاعر جسد الشمل في صورة حسية؛

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٨٧ .

ليسجل للممدوح شجاعته التي بددت هذه الأمور، وفرقت عدوه فكلما بدا فيلق من جيش عدوه ظهر لهم الممدوح فقضى عليه، وعبر بلفظة "كلما" ليدل على كثرة عدد جيش عدوه فقد صوره بأنه ملء الفضاء، وهذا يعني كثرة عددهم وعدتهم، ومع ذلك بدد الممدوح شملهم وقضى عليهم.

ومما سبق أجد أن الصورة في شعر ابن خفاجة مبنية من عناصر الطبيعة، ومن معجمه الأدبي فقد وقع على بعض الصور من التراث الأدبي ،ونماها بقريحته، وأضاف إليها؛ لتناسب تجربته الجديدة، وأنه اعتمد على الاستعارة والتشخيص والتجسيد في بناء صور الممدوح الشجاع، وكان له ذوق خاص ظهر جليا من خلال لوحاته الشعرية التي اتسمت بالحركة لتناسب جو المعارك الحربية التي خاضها الممدوح وأنه جمع بين الصورة المعنوية والحسية، وألف بينهما بخياله المحلق في سماوات الإبداع الفني.

ثالثا: صورة الممدوح الحسية والمعنوية بين الشاعرين

تفنن أبو تمام في رسم صورة للممدوح جمعت بين الصفات الحسية والمعنوية ومن ذلك قوله:

ألبسهُ المجدَ لا يُريدُ بهِ	بُرداً وصاغَ السماحَ مِنهُ وبِهْ
لقمانُ صمتاً وحكمةً فإذا	قال لقطنَا المَرْجَانَ من خُطبهْ
إنْ جدَّ ردَّ الخُطُوبَ تَدْمَي وإنْ	يَلْعَبْ فَجِدُّ العَطاءِ في لَعِبِهْ[1]

ذكر الشاعر أن الممدوح نسيب للنبي صلى الله عليه وسلم وهذا النسب الذكي ألبسه رداء المجد فلم يعد يحتاج إلى رداء يلبسه ، والسماح صيغ منه وبه وله والتعبير بقوله: "منه" يدل على عظم هذا الممدوح فالسماح منه وبه، وأسلوب القصر أفاد اتصاف الممدوح بهذه الصفة ثم قال لقمان ولم يقل هو لقمان؛ وذلك يفيد أن الممدوح اختص بصفتين من صفات لقمان ،وهما الصمت والحكمة، وهاتان الصفتان من أجل الصفات، ثم جاءت الشطرة الثانية

(١) ديوان أبي تمام ج١ ص ٢٧٤ .

من البيت؛ لتؤكد المعنى الذي ورد في صدر البيت فإذا تكلم الممدوح يلتقط الناس الدر من فمه، وهذا المعنى صيغ في ثوب الاستعارة فجاء مؤكدا وموضحا لما سبقه، ثم جانس الشاعر بين قوله جدَّ، وردَّ ، وأسند الرد إلى الخطوب وجعلها تدمى، وجاءت هذه الصورة في شكل أسلوب الشرط وجوابه؛ لتدل على أن الممدوح تتكرر منه هذه الأفعال فهو قادر على هزيمة الحوادث التي تعترضه، وإن مزح الممدوح بالعطاء أنفد ما عزم عليه وأكثر منه وهو يعطي من كان مستغنيا فكيف بمن جاءه محتاجا.

ويتحدث أبو تمام عن أخلاق الممدوح فيقول:

وأخـــلاقُ كـــأنَّ المســـكَ فيهَـــا ... بِصـفوِ الـرَّاحِ والنُّطـفِ العِـذَابِ
وكَـمْ أحييـتَ مِـن ظـنٍّ رُفَـاتٍ ... بهـا وعَمَـرْتَ مِـن أمـلٍ خَـرَابِ
يمـــينُ مُحمَّـــدٍ بَحْـــرُ خِضَـــمٌّ ... طَمُـوحُ المـوجِ مَجْنُـونُ العُبَـابِ
تَفِـيضُ سماحـةً والمُـزنُ مُكْـدٍ ... وتَقطَعُ والحُسَامُ العَضْبُ نَابِ[1]

صور أبو تمام أخلاق الممدوح بالمسك ولو وقف عند هذا لكفاه ،ولكن أبا تمام يغوص حول الفكرة ويجليها ويحسن عرضها فقد جعل المسك ممزوجا بأخلاق الممدوح، وذلك في قوله: "المسك فيها" وأضاف لهذه الأخلاق صفاء الخمر والماء العذب ،ثم صور يمين الممدوح بالبحر الخضم ولو اقتصر عند هذا الحد لتم المعنى ؛ولكن أبا تمام يستقصي صوره ويبعث فيها الحياة ولذا قال: "طموح الموج مجنون العباب" فلم يرد بالبحر أي بحر ولكنه أراد بحرا له صفات معينة ؛لتناسب صفا ت الممدوح فهو بحر خضم كثير الموج مجنون العباب؛ ولذا شبه جود الممدوح به، وجعل ليده خصوصية من دون ماء السحاب فتفيض بالسماحة والمزن مكد لا مطر فيه، وتقتطع والسيف ينبو عن القطع أحيانا، وهذا يدل على أن الممدوح لا ينقطع عطاؤه يوما ما ولا تقصر

(١) السابق ص ٢٨٣ .

يده في حل معضلات الأمور في حين يفل السيف عن الضريبة ولا يقطعها؛ ولهذا تميز الممدوح عن أن ينتسب إلى هذه الأمور وإن شبهه أبو تمام به .

ويتحدث أبو تمام عن علو نسب الممدوح وشرف آبائه وكرامة محتده وطيب منبته وعراقة أجداده فيقول:

نَسبُ كأنَّ عليهِ من شَمسِ الضُّحَى ... نـوراً ومـنْ فلـقِ الصـباحِ عَمُـودا
عُريـانُ لا يكبُـو دليـلُ مـن عَمـىً ... فيـــه ولا يبْغـــي عليـــه شُـــهُودا
شــرفُ علــى أُولَى الزمــان وإنَّمــا ... خَلَـقُ المناسـبِ أن يكـونَ جديـداً
لــوْ لمْ تكُــنْ مــن نَبْعَــةٍ نَجْديَّــةٍ ... عَلْويَّــةٍ لظننــتُ عُــودَكَ عُــودَا
مطــرُ أبــوكَ أبــو أهلــة وائــل ... مــلأَ البســيطةَ عــدةٍ وعديــدَا
أكفــاءَهُ تَلِــدُ الرجــالُ وإنمــا ... وَلَـدَ الحُتُـوفُ أسـاوداً وأسـودَا[1]

هذه الصورة ترصد عراقة نسب الممدوح الذي سطعت شمس الضحى نورا عليه فازدان بهاء وزاده فلق الصبح إشراقا وعظمة فأصبح كالعريان لا يحتاج إلى شيء يستره؛ لوضوحه فهم كالنجوم التي لا يسترها غيم من الغيوم، وهذا الشرف حاذه آباؤه في أول الزمان، فآباؤه من نجد ينتمون إلى أصول عظيمة ،ويلدون أسودا وعبر الشاعر عن ذلك بأسلوب القصر بإنما في قوله :" وإنما ولد الحتوف أساودا وأسودا " ليدل على قصر هذه الصفات عليهم دون غيرهم، ويجلي أبو تمام خلق الممدوح في أنه لا يذعن لأحد من الناس فيقول: [بحر الطويل]

وأروعَ لا يُلقِي المقالِدَ لامرِئٍ ... فكُـلُّ امـرئ يُلقِـى لـه بالمقالِـدِ
لـهُ كبريـاءُ المشـتَرِى وسُـعُودُه ... وسـورةُ بَهْـرامٍ وظرفُ عُطـارِدِ[2]

ذكر أبو تمام أن الممدوح لا يذعن لأحد، ولذلك جاء بالفعل المضارع المقرون بلا النافية لتأكيد هذه الحقيقة، ونكر كلمة "امرئ" حتى يذعن من يسمعه أن

(١) ديوان أبي تمام ج١ ص ٤١٣ .
(٢) ديوان أبي تمام ج ٢ ص٧١ .

الممدوح لا يخضع لأي إنسان، وجاء بلفظة كل في قوله: "فكل امري" للدلالة على خضوع كل الناس لأمره ،ثم لجأ الشاعر إلى الكواكب ليستعير منها صورة الممدوح فهي التي تناسبه فهو فيه كبرياء المشترى ، وغضب بهارم، وظرف عطارد ، وهذه الصورة تدل على عظمة هذا الممدوح وسمو نفسه فصورته لا تختلف عن صورة هذه الكواكب فهو خليق بأن ينسب إليها وتنسب إليه للوشائج التي تجمع بينهما .

ومن الصور الحسية للممدوح قول أبي تمام :

مجــرِّدُ ســيفَ رأيٍ مــن عزيمتِــه ... للــدهرِ صــيقلُه الإطــراقُ والفِكَــرُ
عَضْــباً إذا ســلَّه في وجــهِ نائبــةٍ ... جــاءتْ إليــه بنــاتُ الــدهرِ تَعْتَــذِرُ
وسـائِلِ عـن أبي حفـصٍ فقلـتُ لـه ... أَمْسِــكْ عِنانــك إنــه القــدرُ
هو الهمامُ هو الصابُ المريح هو الـ ... حتفُ الوَحِيُّ هو الصِمْصَامَةُ الـذكَرُ
فــتى تــراه فتنتفــي العُســرُ غُرَّتُــه ... يُمنــاً وينبــعُ مــن أســرارها اليُسْــرُ(١)

رسم أبو تمام صورة للممدوح يتحدث فيها عن رجاحة عقله وصلابة رأيه ومضائه في الأمور العظيمة، ووقوفه أمام أحداث الدهر الجسيمة يجابهها بعزم قوي وفكر ثاقب لا يعرف الوهن فهو صاحب شجاعة خص بها وهو السيف القاطع وهو الصاب، وقد جاء أبو تمام بمفردات هذه الصورة من معجم الحرب وجسد المعنويات في شكل صور حسية نراها بأعيننا ونسمع أصواتها بآذاننا عندما جعل للعزيمة سيف رأي يقف به أمام نوازل الحياة وحتى يرشح هذه الصورة استطرد في ذكر مفرداتها إذ جعل السيف عضبا، وقد سله الشاعر في وجه النائبات وجعل للنائبات وجها وجعل للدهر بنات وأسند الاعتذار إليها وصور اللسان بفرس جامح له عنان يشد منه في قوله: "أمسك عنانك عنه" ونكر كلمة سائل في قوله: "وسائل" وحذف رب ليقلل من شأن هذا السائل ويحقر من أمره، وكشف عن زلته التي وقع فيها وهي سؤاله عن

(١) ديوان أبي تمام ج ٢ ص ١٨٨ .

أبي حفص، وعبر الشاعر بالفاء في قوله: "فقلت له" ليبين للسائل أنه وقع في أمر عظيم ينبغي عليه تداركه، وجاء بأسلوب القصر في قوله: "له" ليدل على أن جواب هذا السؤال معلوم لكل الناس ولكنه خفي على هذا السائل وحده، و الإجابة "إنه القدر" وقد جاءت في صورة الجملة الاسمية المؤكدة بإنَّ؛ لتقطع بالأمر، ويذعن له السائل وهي من المبالغات الممقوتة إذ كيف يتسنى لشاعر مسلم أن يشخص القدر في صورة هذا الممدوح ،ثم يختتم الشاعر الصورة بالبيت الأخير ،وقد احتوى على أربعة تشبيهات بليغة حذف منها وجه الشبه وأداة التشبيه من أجل كمال المبالغة في وصف الممدوح ، وعبر عن الممدوح بضمير الغائب في قوله: هو الهمام، هو الصباب المريح ، وهو الحتف الوحي، وهو الصمصامة الذكر ليدل على علو قدر هذا الممدوح الذي حوى آيات المجد والشرف.

مما سبق يتبين لي أن هذه الصور تركزت حول الصفات الحسية والمعنوية ووصفها وصفا حسيا قوامه الألفاظ القوية الجذلة التي تصور المشهد خير تصوير، وقد أحسن الشاعر في عرض صوره وتشخيصها وتجسيد الأمور المعنوية في صورة أشياء حسية نراها بعيوننا ونسمع أصواتها، وقد احتفى الشاعر بالمبالغة وقد جاءت متلائمة مع الغرض الذي سيقت من أجله ، ولكن البعض الآخر من المبالغات خرج من نطاق المعقول إلى اللامعقول تمجها الأذواق السليمة وقد أشرت إلى بعض منها أثناء تحليلها.

وأما ابن خفاجة فهو مصور بارع يلتقط صوره، ويصبها في قالب من الألفاظ الموحية، ويعرض فكرته في معارض شتى موشاة بالزخرف من الصور، ويجليها من خياله الجامح الذي يجمع شتاتها من الواقع ويدمجها في هيئة من الألفاظ العذبة الرقراقة التي تحمل صورا حسية للممدوح وأخرى معنوية ومن تلك الصور قول ابن خفاجة: [بحر الطويل]

لبيبُ فما تدرِي أرأْياً لحَادِثٍ ... يُبَيِّتُ أَمْ سَهْماً لِشَاكِلةٍ يَبْرِي

تقسَّمه جُودُ يَفِيضُ وهِمَّةُ ... فَمِنْ مَنْهلٍ غَمرٍ ومن جبلٍ وَعْرِ

لهُ كُلُّ نُعْمَى بيضتْ كُلَّ صَفْحةٍ بِكُــلِّ مكــانٍ فــالبهيمُ مــن الغــرِ
فلو مسحتْ يمناهُ عن وجهِ ليلةٍ لحطَّتْ قِناعَ الليلِ عن قمرٍ يَسْرِي[1]

يصف ابن خفاجة الممدوح بالذكاء وذلك في قوله: "لبيب" وهذا الذكاء حير الناس وجعلهم لا يدرون من أمر الممدوح شيئا ، وهم ينظرون إليه والحيرة تتملكهم حول ما يفكر فيه الممدوح، ودار ترددهم حول أمرين :الأول وهو أنه يبيت النية لحادث جلل يقوم بعمله، والآخر أنه يبري سهمه ويعده لأمر قد عزم على إمضائه، وحياة هذا الممدوح تدور في أمرين هما الجود وبذل المال وإنفاقه على من يحيط به، ويعيش في كنفه، والآخر خوض المعارك الضارية في الأماكن المرتفعة التي يعز الوصول إليه لوعورتها وصلابة أرضها، ثم يعود الشاعر إلى الفكرة الثانية وهي الحديث عن كرم الممدوح ليبين أن نعمه انتشرت في كل مكان ولو وقفنا أمام الصور التي أحكم الشاعر نسجها في هذه الأبيات لألفيناها تشمل الاستعارة والكناية فقوله: "بيضت كل صفحة" كناية عن نعمه التي استبشر بها كل من أخذ منها، ولعل تكرار لفظة "كل" في قوله كل نعمى، وكل صفحة، وكل مكان ؛للدلالة على اختصاص هذه النعم بهذا الممدوح دون غيره من الناس، وجاءت الاستعارة في قوله: "مسحت يمناه عن وجه ليلة حيث جعل لليلة وجه، وجعل لليل قناع يتستر خلفه وجعل الآمال وهي أشياء معنوية في صورة شيء حسي فقد رمى بالآمال إلى الممدوح ليضعها في كف من يحفظها ويتولاها فهو كمن عهد بالمرعى الجديب إلى القطر.

ومن الصفات الحسية والمعنوية التي حطها الشاعر بيراع قريحته قوله: [بحر الكامل]

في حســنِ مَنْطِقــهِ وهشــةِ وجهــهِ مُسْــتمتَعُ الأسمــاعِ والأبصــارِ
جارى الرياحَ إلى السماحِ فما جرتْ معه الرياحُ النُّكبُ في مِضْمَارِ

(١) ديوان ابن خفاجة الأندلسي ص ٢٧ .

وزكـا فشـدَّ علـى العفـافِ إزارَهُ ... إن العفـافَ لشـيمةُ الأحـرارِ
يقـظُ ذَكَـا فهمـا وأشـرفَ هِمـةً ... وكفـاكَ مـن نـارٍ بـهِ ومنـارِ
لـبسَ التواضـعَ عـن جـلالٍ وارتقـى ... شـرفاً بحيـثُ سما سماءَ فَخَـارِ
ألقـتْ إليـه بـالأمورِ إمـارةُ ... مـلأتْ رواءَ أعـينِ النظـارِ
فعنـانُ تلـكَ الدولـةِ الغـراءِ في ... تـدبيرِ ذاك الفـارسِ المغـوارِ
بطـلُ جـرى الفلـكُ المحـيطُ بِسـرْجِهِ ... واستلَّ صـارِمَهُ يَـدُ المِقـدارِ [1]

جمع ابن خفاجة في هذه الأبيات للممدوح عدة صفات وهي حسن المنطق ، وهذا يدل على رجاحة العقل ، وتهلل الوجه بالسرور، والكرم والعفاف والذكاء، وسرعة البديهة، وكل هذه الصفات أهلته للإمارة؛ ولذا جاءت تسعى إليه فأحسن تدبير أمورها، وساس الرعية أحسن سياسة، وقد صاغ الشاعر هذه الصفات في هيئة صور شعرية رائعة، ولذا جاءت الجملة الاسمية على خلاف ما عهدناه؛ لتحكي صورة بطل له صفات جليلة فقدم الخبر على المبتدأ، وجاء المبتدأ ليشاكل الخبر فقوله: "مستمتع الأسماع"، يشاكل حسن منطقه وهشة الوجه يناسبها قوله: "والأبصار" فرؤية الممدوح تجذب الأسماع والأبصار، وتأتي الكناية لتسجل علو نفس الممدوح الذي تخذ العفاف رداء له.

وعبر الشاعر بالفعل زكى وهو فعل ماضي؛ ليدل على أن هذه الصفة ملازمة له مذ أن كان صبيا، وجاء العطف بالفاء في قوله: "فشد على العفاف إزاره"؛ ليدل على سرعة هذا العمل فزكى أتبعها بقوله: " فشد" ويصور الشاعر العفاف شيئا حسيا يشد الإزار عليه ، ويؤكد قيمة العفاف بهذه الجملة الإسمية في قوله: "إن العفاف لشيمة الأحرار" وقد جمع لهذه الجملة خصائص عدة فقد بدأها بإن المؤكدة وباسمية الجملة واقتران الخبر بلام التوكيد ،ثم وصف الممدوح بالذكاء وسرعة الخاطر ، وتقدير الأمور حق قدرها ، ووضعها في نصابها الصحيح وبالهمة العالية التي لا ترض إلا بأعالي الأمور، والبعد عن

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٧ .

سفاسف الأشياء وهذه الهمم لا تكون إلا لأصحاب النفوس العظيمة ، ومع كل هذه الصفات يتسم بالتواضع الذي زاده جلالا وهيبة وعلا به حتى وصل عنان السماء، والشاعر حريص على التشخيص فقد شخص الإمارة في صورة حسية حيث جاءت إلى الممدوح وأذعنت لسلطانه وألقت بأمورها إليه؛ ليسوسها حسب ما يتمنى ويرغب ثم أكد ذلك في البيت الأخير بقوله: "فعنان تلك الدولة الغراء" وقد صور الإمارة في هيئة فرس له عنان في يد الممدوح يتصرف فيه وفق مشيئته ولهذا أحسن سياستها وتصريف شؤنها لأنه الفارس المغوار الذي لا يصلح إلا لها ولا تصلح الإمارة إلا به ،ثم تحدث عن عظمة هذا الممدوح في قوله: "بطل" ونكر هذه الكلمة؛ ليدل على قوة هذا البطل الذي تجري المياه بسرجه، وهذا يدل على تحكمه في أزمة الأمور، وقدرته على تصريفها حسب إرادته.

ويجمع ابن خفاجه بين صورة الممدوح الحسية والمعنوية فيتحدث عن منطق ممدوحه المبين وذكائه وفهمه لمعضلات الأمور فيقول: [بحر الطويل]

وكمْ منطقٍ فصلٍ هو الدُّرُّ يُجْتَلَي ... على بحرِ طِرسٍ أَوْ هُوَ المسكُ يَفْتِقُ
صدعتَ بهِ دون الحقيقةِ سُدْفَةً ... تفرَّتْ عن الإصباحِ والليلُ مُطْرِقُ
و يا ربَّ ليلٍ بِتَّهُ فوقَ مَضْجَعٍ ... مُقْضٍ وجَنْبٍ قدْ تقلَّبَ يَقْلَقُ
يقومُ بكَ القلبُ الأبيُّ وتارةً ... يَغُوصُ بكَ الفهمُ الذكيُّ فَتطرقُ
فلم تغتمضْ والنجمُ قد مالَ سُحْرةً ... فأغفى وأذيالُ الظلامِ تُمَزَّقُ
ولليلِ ظِلٌّ قد تقلَّصَ أخضرُ ... وللصبحِ ماءٌ قد تسللَ أزرقُ
وجَدُكَ يستولي ورأيُكَ ينقضي ... وعزمُكَ يستجري وسعدُكَ يَسْبِقُ[1]

تحدث ابن خفاجة في الأبيات السابقة عن منطق الممدوح وفصله في الأمور العظيمة فقال: وكم منطق فصل، وكم تدل على كثرة فصل الممدوح في الأمور العظيمة التي تعترض طريقه، ووصف المنطق بالفصل كناية عن

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٨٤ .

حكمته التي تميز الحق من الباطل ، وقد شبه هذا المنطق بصورتين هما: الدر الموضوع على الصحف أو المسك المخلوط بغيره من الروائح الطيبة، ثم جاء بالاستعارة في قوله: "صدعت به دون الحقيقة سدفة" وهذه صورة استعارية رائعة حيث جلى الممدوح بمنطقه العذب الحقائق وأخرجها من ظلام الشك إلى نور اليقين، ثم صور حال الممدوح وهو يفكر في أمر رعيته فلم يرقأ له جفن لأن قلبه مهموم بأمرهم يسهر ويكد ويغوص بثاقب فكره؛ ليجلو حقائق كانت محجوبة عنهم، والكناية في النص لها دورها البارز إذ يقول: "وجنب قد تقلب مطرق" و"يقوم بك القلب الأبي"، و"يغوص بك الفهم الذكي"، كل ذلك من قبيل الكنايات التي تسهم في بناء هذه الصورة التي عني بها الشاعر، وصورة الليل الذي ظل يتقلص من الصور الحسية التي جعلت ظلام الليل يتحرك حركة بطيئة؛ ليحل محله ضوء الصباح ،ثم يعود الشاعر إلى نفس المعنى فيؤكده باستعارة أخرى في قوله: "وأذيال الظلام تمزق" وقد جعل للظلمة أذيالا تتمزق وتتقطع ليحل محلها ضوء الصباح وهي صورة حسية تماثل الصورة السابقة ولكنه تزيد الفكرة وضوحا، ثم صور الشاعر الجد في صورة حسية جاءت في قوله: "وجدك يستولي" ونسب الاستيلاء إلى الحظ وأضاف إليه كاف الخطاب ليدل على تمكن الممدوح مما حوله، وعبر بالفعل المضارع يستولي للدلالة على استمرار هذا الملك في المستقبل ، فحظ الممدوح أصبح ملازما له في الماضي والحاضر، ولم يكتف بذلك بل عبر عن رأيه وعزمه وسعده؛ ليدل على كمال هذه الصفات في هذا الممدوح.

ويخلع ابن خفاجة على الممدوح سلاسة الكلام ونصاعة الجبين، والنصرة على الأعداء ، وصيانة الأمانات، وحفظ العهود، فيقول:

خلعَ الثناءُ عليهِ أكرمَ حِليةٍ ... يُزْهَى بها في الدِّستِ عِطْفُ اللابسِ
سلسُ الكلامِ على السماعِ كأنَّهُ ... سِنةُ ترقرقُ بين جفني ناعِسِ
ما إن يُمازُ من الشهابِ طلاقةً ... حتى تُمَدَّ إليه كفُّ القابسِ
تركَ الأعادِيَ بين طرفٍ خاشعٍ ... لا يستقلُّ وبين رأس ناكِسِ

وزكا فلم ينظرْ بطرفٍ خائن ... يوما ولم يغدر بعهد خائِسِ
متقلبُ ما بينَ عزمٍ غارسٍ ... للمعلوماتِ وبينَ حزم حارِسِ
وذكاء فهم لو تمثل صارماً ... لم يأتمن ظُبيتهِ عاتِقُ فارِسِ
وبراعةٍ سكنتْ لِسانَ يراعةٍ ... حَكَمَ البيانُ لها بحكمة فارِسِ
ومقام حكمٍ عادلٍ لا يزدري ... فيه المعلَّى حُظْوةً بالنافِسِ[1]

إن الشاعر في هذه الصورة يجسد المعنويات، ويخلع عليها أوصافا حسية، فقد جعل الثناء يوزع الحلى، وقد اختص الممدوح بأعظم حلية ؛ليقف في مقام القضاء شامخا بما عليه من الحلى، ثم وصف كلام الممدوح بالسلاسة ،وشبهه بالسنة من النوم التي تترقرق بين جفني الناعس، وذلك في قوله: "كأنه سنة ترقرق بين جفني ناعس" ثم بين أن نور الممدوح يفوق نور الشهاب، ويمتاز عنه بالطلاقة حتى كاد كف القابس أن تلامس هذا النور والبهاء، وبين ما فعله الممدوح بالأعادي فقد تركهم بين أمرين طرف خاشع، ورأس ناكس والأمر الأول كناية عن الذلة والخضوع في ضعف واستكانة، والثانية كناية عن الخشوع والذلة، والكناية الثانية تؤكد الأولى ثم وصف الممدوح بالأمانة، وحفظ العهد، فحياته إما للمكرمات وإما حماية للبلاد ثم نعته بالذكاء والفهم، وصور ذكاءه بالسيف الصارم الذي يجذ نواصي الأعداء، ثم وصف الممدوح بحسن البيان والحكمة والعدل ولهذا سكن الناس إليه واستبشروا به خيرا لأنه حقق لهم ما يتمنون .

رابعا: صورة الممدوح بنصرة دين الله بين الشاعرين

لقد بسط الإسلام سلطانه في حياة الناس فنظم أمورهم الدنيوية ،ووضع لهم دستورا يتنسمون عدله ،ويغترفون من فضله أمنا وأمانا وإيمانا يسري في جنبات حياتهم ، وفي العصر العباسي قامت معارك بين المسلمين وغيرهم من الأمم المجاورة لهم كالروم والفرس، وقد قام بعض الخلفاء بخوض هذه المعارك

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٢٨.

بنفسه من أجل توطيد أركان ملكه، ورفع راية الإسلام عالية خفاقة ،ومن هؤلاء الخلفاء المعتصم فقد " سجل أبو تمام انتصاره العظيم على البيزنطيين وهو فيها مبتهج ابتهاجا لا حد له بهذا الفتح المبين ،وقد استهلها بتفضيل القوة على العقل ، والسيف على الكتب والهزؤ بالمنجمين وما زعموا من أن المعتصم لا يفتحها فإذا هي تسقط أركانها ويتداعى بنيانها أمام مجانيقه وجنوده البواسل، ويفر "توفيل" إمبراطور بيزنطة على وجهه ، وقد عصف بقلبه الرعب والنيران تأخذ عمورية من كل جانب"(١) [بحر البسيط]

فتحَ الفتوحِ تَعَالى أنْ يُحيطَ به ... نَظْمُ من الشعرِ أو نثرُ من الخطبِ
فتحُ تفتَّحُ أبوابُ السماءِ لهُ ... وتَبْـرُزُ الأرضُ في أثوابِهَـا القُشُـبِ(٢)

لقد تحدث أبو تمام عن الممدوح الذي خاض المعارك لنصرة الإسلام ورفع رايته عالية خفاقة في ربوع أرض الروم، وضحى بالنفس والنفيس، وكسر شوكة الروم الذين يناوشون المسلمين على الثغور بين الحين والآخر، وهذا الفتح العظيم بينه وبين أيام بدر نسب وقربى وفي هذا يقول أبو تمام:

خليفـةَ اللهِ جـازَى اللهُ سـعيَكَ عـن ... جُرْثُومـةِ الـدينِ والإسـلامِ والحسـبِ
بَصُرْتَ بالراحةِ الكُبْـرَى فلـمْ ترهَا ... تُنَـالُ إلاَّ علـى جسـرٍ مـن التَّعـبِ
إن كان بينَ صروفِ الدهرِ من رحمٍ ... موصـولةٍ أو ذِمَـامٍ غـيرِ مُنْقضِـبِ
فبـين أيامِـكَ الـلاتي نُصـرتَ بهـا ... وبـين أيـام بـدر أقـربُ النَّسَـبِ
أبقتْ بني الأصفرِ الممراضِ كاسِمِهم ... صُـفْرَ الوجـوهِ وجَلَّـتْ أوجُـهَ العربِ(٣)

بـدأ الشـاعر هـذه الأبيـات بتنكيـر كلمـة " خليفـة " ثـم أضـافها إلـى لفـظ الجلالة، وفي هذا تشريف وتكريم للممدوح الذي حاز الفخار بإضافته إلى الله سبحانه وتعالى، ثم جاء بالفعل الماضي جازى وفاعل المجازاة هو الله سبحانه وتعالى، وأضاف السعي إلى ضمير المخاطب في قوله: "سعيك" للدلالة على

(١) العصر العباسي الأول د/ شوقي ضيف ص ٢٨٤.
(٢) ديوان أبي تمام ج١ ص ٤٥.
(٣) السابق ص ٧٢.

عظم المجازاة فالله هو المكافئ، وعطاء الله عظيم، وفضله وافر، وأما سعي الممدوح فلنصرة الدين والدفاع عن الأحساب وقد تمثل هذا الجهاد في غزو الروم؛ ولهذا عبر بالكناية في قوله: "الراحة الكبرى" وهي كناية عن الانتصار على الروم، وهذا النصر لم ينل إلا بالتضحية العظيمة، وجسد الشاعر التعب في قوله "جسر من التعب" وبين الشاعر أن حوادث الدهر بينها رحم موصولة فقد اتصلت هذه الأيام بأيام بدر الكبرى وما كان فيها من نصر عظيم على مشركي مكة على الرغم من قلة عدد المسلمين، وقلة عتادهم ،وتأتي الصورة البصرية التي التقطها الشاعر بعدسته المصورة لنشاهد جند الروم والخوف يملأ نفوسهم وصورة المسلمين والبشر والنور يعلو وجوههم وذلك في قوله أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم صفر الوجوه ، وجلت أوجه العرب ،وهذه الصورة جمعت بين صورتين متناقضتين صورة الروم ،وصورة المسلمين وهي من الصور البصرية التي رسمت سمات الممدوح الذي ينافح عن دينه بكل ما يملك رجاء ما عند الله من ثواب عظيم .

ومن صور الممدوح بنصة دين الله قول أبي تمام: [بحر البسيط]

لله أيامُكَ اللاتي أعزتَ بها ... ضَفْرَ الهدى وقديماً كانَ قدْ مرجا
كانتْ على الدينِ كالساعاتِ من قصرٍ ... وعدَّها بابكُ من طُوهِا حِجَجَا
أصبحتَ تدلفُ بالأرضِ الفضاءِ لهُ ... نصباً وأصبحَ في شعبيهِ قدْ لَجِجَا
عادتْ كتائِبُه لَمَّا قصدتَ لها ... ضَحاضِحاً ولقد كانتْ تُرى لُجُجَا
لَمَّا أبَوْا حُجَجَ القرآنِ واضِحةً ... كانتْ سيوفُكَ في هاماتِهِمْ حُجُجَا(١)

بدأ الشاعر هذه الصورة بأسلوب القصر في قوله "لله أيامك" فنسبة الأيام لهذا الممدوح يعني أن له في أيامه صولات وجولات في الحروب ضد الروم أقضت مضاجعهم ، وأفسدت عليهم حياتهم، وكانت بمثابة الصاعقة التي نزلت بهم، وعبر عن ذلك في صورة الاستعارة التي جاءت في قوله: "أغرت

(١) ديوان أبي تمام ج١ ص ٢٣٢ .

بها ضفر الهدى" فقد صور الدين بالحبل الذي أحكم ضفره، وكانت هذه المعركة بمثابة ساعات قصيرة مرت دون أن يشعر بها المسلمون وبالنسبة للعدو سنين عديدة بسبب كثرة القتل الذي استحر فيهم، وقد عرض الشاعر المعنى السابق في صورة تشبيهية وردت في قوله:

كانت على الدين كالساعات من قصر وعدها بابك من طولها حجج

ويصور الشاعر عز الممدوح وسعة الأرض التي يمشي عليها قاصدا عدوه في صورة كنائية جاءت في قوله: "تدلف بالأرض الفضاء له"، وقابل بين هذه الصورة وبين صورة عدوه وقد ضاقت عليه الأرض من أطرافها وذلك في قوله: "وأصبح في شعبيه قد لججا" والتضاد الواضح بين الصورتين يسهم في استقراء معالم الصورة من جميع جوانبها، ويؤكد أننا بإزاء شاعر مصور يحرك عدسته في أرض المعركة ؛ليرصد الصورة الواضحة لكلا الطرفين المتحاربين ،ولم يغفل الأثر النفسي لهذه الصورة وشدة وقعه على هذين المتحاربين ،ولم يفت الشاعر الحديث عن صورة جيش الروم أثناء عودته من أرض المعركة وهو يجر أذيال الإخفاق بل قارن بين حالته قبل الحرب وبعدها، فهم بعد المعركة كالسراب لا قيمة لهم ولا فائدة مرجوة منهم، وكانوا قبل المعركة كثيري العدد كلجج البحر وهو الماء الكثير الذي يرى طرفاه فهم لكثرة عددهم يثيرون الرعب في نفوس من يراهم، وهذه الصورة من الصور البصرية التي جمعت بين حالتين متناقضتين لجيش العدو والشاعر حريص على تدبيج هذه الصورة بفنون البديع ومن ذلك قوله: "حجج القرآن، وسيوفك في هامتهم حجج " فقد خير الممدوح أعداءه بين أمرين تحكيم العقل وسماع ما جاء في القرآن الكريم من حجج، أو تحكيم السيف في أعناقهم.

ومن صور الممدوح بنصرة دين الله قول أبي تمام :

يا فارسَ الإسلامِ أنتَ حميتَهُ وكفيتَهُ كلبَ العدوِ المعتدِي
ونصرتَهُ بكتائبٍ صيرتَّها نصْباً لعوراتِ العدوِّ بمرصَدِ
أصبحتَ مفتاحَ الثغورِ وقفلَها وسِدادَ ثُلمتِهَا التي لم تُسَدَدِ

أدركتَ فيهِ دم الشهيدِ وثارَه وفلجتَ فيه بشُكر كلِّ مُوَحَّدِ
ضحكتْ لهُ أكبادُ مكةَ ضحكها في يومِ بدرٍ والعتاةِ الشهدِ
أحييتَ للإسلامِ نجدةَ خالِدٍ وفسحتَ فيهِ لِمُتهِم ولِمُنْجِدِ[1]

في الأبيات السابقة يرسم الشاعر للممدوح صورة يبرزه فيها بفارس الإسلام فقد نسب فروسيته إلى الإسلام، وهذا النداء يدل على عظمة هذا الممدوح فقد عبر الشاعر بأداة النداء "يا" وهي للبعيد وتدل للدلالة على علو هذا الممدوح، ثم عبر بأسلوب القصر في قوله: "أنت حميته" فقد قصر حماية الإسلام على هذا الممدوح وحده، ثم أردف ذلك بقوله "وكفيته كلب العدو المعتدي" فقد صور أعداء الممدوح بالكلب، وأعقبها بقوله "المعتدي"؛ لتدل على فداحة الجرم الذي وقع فيه هؤلاء المعتدين ،وقد جهز الممدوح كتائب عظيمة لرد عدوان أعدائه ، وجاء بكلمة كتائب نكرة للدلالة علة عظم هذه الكتائب وكثرتها وهذه الكتائب تعقبت العدو وصدت عوراته وترصدته وحطمت قواه ، وكلمة مفتاح الثغور استعارة جميلة حيث جعل الشاعر للثغور أبوابا وجعل لها مفاتيح بيد الممدوح وبهذا أدرك الممدوح ثأر الشهداء الذين سقطوا في ميدان المعارك ولهذا شكره المسلمون لأن انتصاره يذكر المسلمين بيوم بدر وبخالد ابن الوليد يوم كان على جيش المسلمين يوم فتح مكة وهذه المعاني كررها أبو تمام وألح على تكرارها أثناء حديثه عن نصرة ممدوحيه للإسلام وأهله.

أما ابن خفاجة ففي أثناء حديثه عن صورة الممدوح يبرز صلته بالإسلام، ودفاعه عن أرض الإسلام والمسلمين ،وينعته بصفات منبثقة من تعاليم الإسلام، ويؤكد أن ما يقوم به الممدوح من أعمال إنما هي لعز الإسلام ونصرته، ولرد عاديات البغي والطغيان ومن ذلك قول ابن خفاجة:

يَسيرُ بهِ الحقُّ سيرَ القَطَا فيقضِي ويمضِي مُضَّي الزلمْ
يسدِّدُ حتى صدورَ القنى ويضرِبُ حتى رؤوسَ الـبُهَمْ

(١) ديوان أبي تمام ج٢ ص١٣٨ .

ويهجُـرُ في اللهِ حـتى الكَـرَى ... ويـــألفُ في الله حـــتى نَعَـــمْ
وحسـبُكَ مـن أوحـد أمجـدٍ ... تبـاهي بـه العُـربُ صـيدَ العجَـمْ
سـنِيُّ العطايـا حفـيُّ التحايـا ... علـيُّ السـجايا كـريمُ الـذِّمَمْ
تُنـــوِّرُ بالبشـــرِ أخلاقـــه ... ويجـري بكفِّيـه مـاءُ الكَـرَمْ
ويهتـــزُّ للضـــيفِ خُدَّامُـــهُ ... وتُعْـدِي سـجايَا الموالي الخَـدَمْ[1]

إن ابن خفاجة يعرض فكرته في صور خيالية تجذب عقل وقلب من يتأملها فهو يتحدث عن قاض من القضاة يحكم بين الناس بالعدل ولكن الشاعر يعبر عن ذلك معتمدا على الخيال الذي يجمع بين عناصر متناقضة ويؤلف بينها فإذا هي صور حية ولذا نراه يقول: "يسير به الحق سير القطا" فمن الذي يسير الحق به ؟ ومع أن الحق شيء معنوي، إلا أن الشاعر يجسده في صور حسية تتحرك بالممدوح وتوجهه إلى مناط الصواب، وعبر بالفعل المضارع يسير، ويقضي، ويمضي للدلالة على أن هذا الأمر هو دأبه في حياته كلها فيقضي به ويمضي به ثم وسم الممدوح بالشجاعة في ساحات المعارك الحربية لقيامه بتسديد رماحه في صدور أعدائه وهجره من أجل رضا الله النوم، كما يألف من أجل الله كلمة نعم، وأما عطاياه فوفيرة وعظيمة وصفاته النبيلة جعلت العرب تباهي به العجم، وأما قوله: "ويهتز للضيف خدامه فهي كناية عن الفرح والبشر والسرور لرؤية الضيوف ، والصورة السابقة جمعت بين الاستعارة والكناية والحقيقة ورسمت معالم واضحة للممدوح أبرزت حرصه على تعاليم الإسلام وسيره في طريقه قولا وعملا .

ويثبت ابن خفاجة لممدوحه الوقوف في وجه العصاة الذين يمرقون بعيدا عن تعاليم الإسلام، والوقوف ضد أعداء الإسلام ومحاربتهم والنيل منهم وفي ذلك يقول:

و هـل أنـتَ إلا رحمـةُ اللهِ تنكفـي ... عذاباً على أهلِ المعاصي فتقمَعُ

(١) ديوان ابن خفاجة الأندلسي ص ٤٥ .

فكم حِرز عزٍ قد غشيتَ ببطشةٍ تُصِمُّ العِدى قَرْعَاً حين تُسْمِعُ
وغادرتَه من معقِلُ وهو معقرُ لمعتقديه مَصْنَعا وَهْوَ مَصْرَعُ
فأنجزَ فيهِ موعدَ السيفِ فاتِكُ يَهُونُ عليه الجانبُ المتمنّعُ
وأهدى به طِيبُ الحديثِ قسيمةً يَخُبُّ بها ركبُ الثناءِ ويوضِعُ
إذا هزَّ أعطافَ المعالي حسبتُه يُدِيرُ بها كأساً عليه تُشَعْشَعُ
وحسبُكَ من فُلجٍ لأبيضَ واضحٍ يُعيدُ ويُبْدِي في المعالِي فَيُبدِعُ

بدأ ابن خفاجة هذه اللوحة الشعرية بأسلوب القصر "هل " التي جاءت بمعنى ما وإلا فقد وصف الممدوح بأنه رحمة الله في الأرض يصب عقابه على العاصين فيقمع غرورهم ويردهم إلى حياض الإسلام وفي البيت التالي يقول الشاعر:" فكم حرز" وكم تدل على كثرة الأماكن المنيعة التي اجتازها الممدوح ضد أعدائه وكم هنا خبرية، وتقدير الكلام وكم من حرز وجاءت الصفة في قوله: "عز" للدلالة على الامتناع وتضعيف عين الفعل له مغزى فقد عزت هذه الأماكن واستعصت على غير الممدوح ولكنها أسلمت قيادها إليه ومجيء قد قبل الفعل الماضي في قوله: "قد غشيت" لتدل على تحقيق دخول الممدوح إلى هذه البلاد الوعرة وتنكير "بطشة" للدلالة على عظمها ونزولها على الأعداء كالصاعقة حتى جعلتهم في صمم بين قتيل وجريح ،وصور الشاعر أخلاق الممدوح في صورة حسية إذ جعل للمعالي ثوب له أعطاف يحركها الممدوح حسب ما يريد حتى ظنه من رآه أنه يدير كأسا في يده مشعشعة بما فيها، وهذه الصورة تدل على شاعرية فذة وأنه مصور يملك أدوات تصويره ويوجهها في المكان المناسب لها.

وألحظ أن صورة الممدوح بنصرة دين الله عند ابن خفاجة كانت قليلة وأنه لم يستطرد فيها ولم يقدم لنا صور عديدة مبعثها حرص الممدوح على نصرة دين الله وذلك راجع إلى شخصية ابن خفاجة الذي كان يعيش حياة وادعة آمنة ولم يشغل نفسه بمثل هذه الصور لأنه شغل بنفسه أكثر مما شغل بغيره.

المبحث الرابع
الموازنة بين الشاعرين

أولا: مصادر الصورة بين الشاعرين

إن من يمعن النظر في صورة الممدوح بين الشاعرين يدرك أن لهذه الصورة مصادر يمكن حصرها في الآتي:

أ- الطبيعة

إن الطبيعة تعد الرافد الأول الذي استقى الشاعران منه مادته التصويرية، والطبيعة بما فيها من مناظر

تجذب لبَّ الشاعر فيدور في فلكها بما فيها من أنهار، وبحار، وجبال، وحدائق، وسهول، ووهاد، وغير ذلك من المناظر التي تستأثر بقلوب وعقول الشعراء، وقد برع أبو تمام في بناء صوره من عناصر الطبيعة ومن ذلك قوله:

طلبتْ فَـتَى جُشَـمِ بـنِ بَكْـرِ مَالِكـاً ضِـــرغَامَهَا وهِزَبرهَـــا الـــدِّلْهَاثَا
مَلِـكُ إذا استسـقيْتَ مُـزْنَ بَنَانِـه قتـلَ الصَّـدَى وإذا اسـتَغثْتَ أغاثَـا
قَـدْ جَرَبَتْـهُ تَغْلِـبُ ابنـةُ وائِـل لا خَـــائِراً غُـــدَراً ولا نَكَّاثَـــا[1]

في الأبيات السابقة بنى الشاعر هذه الصورة الفنية من عناصر الطبيعة وهي الضرغام، والهزبر، والسقيا والمزن، والصدى، والغيث، وكل ذلك من عناصر الطبيعة، وربط بين هذه المفردات وبين الممدوح فقد وصف شجاعة الممدوح بالهزبر، والضرغام، ووصف جوده وكرمه بماء المزن، وجسد حاجة الناس إليه بالمستغيث الذي اشتدت حاجته إلى الماء ، وصورة الممدوح عند أبي تمام مستمدة في الغالب من عناصر الطبيعة.

وأما ابن خفاجة الأندلسي فقد اعتمد على مفردات الطبيعة في تكوين لوحاته التصويرية وأية ذلك قوله:

فـافزعْ إلى قاضِـي الجماعـةِ رهْبَـةً تضـعُ العِنـانَ بخـيرِ راحـةِ سَـائِسِ
واستسـقِ مِنْـهُ إن ظَمِئـتَ غَمَامَـةً يَخْضَـرُّ عَنْهَـا كُـلُّ عُـودٍ يَـابِسِ

(١) ديوان أبي تمام ج١ ص ٣١٥ .

وإذا رويــتَ بمــاءِ ذاك المُجتَلَــى فحَـذَارِ مــن أُفْـوبِ ذاكَ الهـاجِسِ
مـن آل حمـدينَ الأُولى حَلِيَـتْ بِهِـمْ قِــدْماً صُــدُورُ كتائِــبٍ ومَــدَارِسِ
مــن أســرةٍ نشــئُوا غمــائِمَ أزْمــةٍ ولربمــا طلعُــوا بُــدُوراً حَنــادِسِ[1]

بنى الشاعر صورة الممدوح من عناصر الطبيعة من مثل قوله: "استسق، والغمامة، والعود اليابس، والماء، والبدور الحنادس" وهذه المفردات تدل على كرم الممدوح والذي ربط بين عناصر الطبيعة والممدوح هو العطاء والكرم وحاجة الناس إلى الغيث والمطر، ثم يستطرد الشاعر في رسم هذه الصورة فيغرق في أوصاف الطبيعة وتتول الصورة إلى رموز تدل على كرم الممدوح وتصف مجده الذي شهد به القاصي والداني ولهذا قال الشاعر:

وجَنَوا ثِمَارَ النصرِ من غَرْسِ القَنَى بِــأَكُفِّهِم ولــنعمَ غَــرْسُ الغــارِسِ
فَهُــمُ لُبَــابُ المجــدِ تَجْــدَةَ أَنْفُــسٍ وذكــاءَ ألبــابٍ وطِيْــبَ مَغَــارِسِ
وَهُــمُ ريــاضُ الحَــزْنِ نَضْــرَةَ أوجُــهٍ وجَمَــالَ آدابٍ وحُسْــنَ مَجَــالِسِ

فثمار النصر وغرس القنا وطيب المغارس ورياض الحزن ونضرة الوجوه كل هذه العناصر مستمدة من الطبيعة ، وقد كان ابن خفاجة مفتونا بالطبيعة فنقل مصطلحاتها إلى ميدان الأدب ومكارم الأخلاق بل وإلى ساحات المعارك الحربية وهذه تعد سمة خاصة من سمات شعر ابن خفاجة الأندلسي وإن كانت هذه السمة موجودة في شعر أبي تمام إلا أن ابن خفاجة مفتون بالطبيعة الأندلسية ولذا نراها حاضرة في كل قصائده يوشي منها حلالا كثيرة ويلبسها صورا للممدوح تمتاز بالحركة واللون والرائحة الذكية فتسري في جنبات القصيدة كلها .

ب- العلم والثقافة

يعد العلم والثقافة من مصادر تكوين الصورة في شعر أبي تمام وابن خفاجة الأندلسي والثقافة لا تنحصر في علم بعينه بل هي الأخذ من كل علم

(١) ديوان ابن خفاجة الأندلسي ص ٢٢٩ .

بطرف، وثقافة أبي تمام لا تنحصر في اتجاه بعينه فقد ألم بالعلوم الدينية وبالتاريخ الإسلامي، وبتاريخ العرب في الجاهلية، وجاءت صوره الفنية تعكس هذه الثقافة فمن قصيدته الرائية التي يتحدث فيها عما فعله الخليفة المعتصم بالأفشين بعد أن اصطفاه وأحسن إليه ولكنه خانه فأخذه المعتصم ونكل به وقتله وصلبه واستشهد أبو تمام بما فعله النبي ﷺ مع سعد بن أبي السرح حين اختاره لكتابة الوحي ولكنه أضمر النفاق وانكشفت سرائره للمصطفى ﷺ وكذلك اصطفت طائفة من بني هاشم المختار بن أبي عبيدة الثقفي وأعانوه ليأخذ بثأر الحسين بن علي ولما انكشف أمره لهم تبرءوا منه وفي ذلك يقول أبو تمام:

هـذا النَّـبيُّ وكـانَ صـفوةَ ربِّـهِ ... مـن بـينِ بـادٍ في الأنـامِ وقَـارِ
قدْ خَصَّ من أهلِ النفاقِ عِصَابةً ... وهُـمُ أشَـدُّ أذى مـن الكُفَّـارِ
واختـارَ مـن سـعد لعـينِ بـني أبي ... سَـرْحٍ لـوحي اللهِ غـيرَ خِيَـارِ
حتى استضاءَ بِشُعلةِ السِّورِ التي ... رفعـتْ لـه سَـجْفاً عـن الأسـرَارِ
والهـاشميُّونَ اسـتقلتْ عِـيرُهم ... مـن كـربلاءَ بأثقـلِ الأوتـارِ
فشـفاهُمُ المختـارُ منـه ولم يكُـنْ ... في دِينـهِ المختـارُ بالمُخْتَـارِ(١)

والأبيات السابقة تدل على تمكن الشاعر من التاريخ الإسلامي والأموي فهو يختار من الحوادث التاريخية ما يتناسب مع تجربته من مواقف تتكرر عبر التاريخ البشري ولا مناص له من ربط الماضي بالحاضر كما صورته الأبيات السابقة إذ جمعت بين تاريخ النبوة وعصر بني أمية واستثمر الشاعر تلك الوقائع وربط بينها برباط فني وثيق ، وأبو تمام في نفس القصيدة يستشهد بحوادث دارت في التاريخ القديم مثل حديثه عن عمرو بن شأس وابنه عرار الذي يقول فيه:

فسـقاهُ مـاءَ الخفـضِ غَيْـرَ مُصَـرَّدٍ ... وأنامـهُ في الأمـنِ غَيْـرَ غِـرَارِ
ورأى بـهِ مـا لم يكُـنْ يَوْمَـاً رأى ... عمـرُو بـن شَـأسٍ قَبلَـهُ بِعِـرَارِ

(١) ديوان أبي تمام ج٢ ص ٢٠٠ .

فـإذا ابـنُ كـافِرةٍ يُسِـرُّ بِكُفْـرِهِ وجْـــدَاً كوجْـــدِ فـــرزدَقٍ بنَـــوارِ
وإذا تـــذكَّره بكـــاهُ كمـــا بَكَـــى كَعْـبُ زَمـانَ رَثَـى أبـا المِغْـوَارِ[1]

في هذه الأبيات يحتج أبو تمام للمعتصم الذي اصطفى الأفشين ثم قتله ويبين مدى حب المعتصم له ويستشهد بخبر من التاريخ وهو حب عمرو بن شأس لابنه عرار وإيثاره له وتطليقه لزوجه من أجل حبه لعرار، وتحدث عن رثاء كعب بن سعد الغنوي لأخيه شبيب بن سعد أبا المغوار.

ومما سبق نعلم أن أبا تمام كان ملما بتاريخ الشعراء وحياتهم وآدابهم وبتاريخ العرب في الجاهلية والإسلام ، وعصر بني أمية واستطاع أن يقتبس من التاريخ تجارب ذات صلة بتجربته الشعرية وكانت مصدرا من مصادر صوره الفنية. ويقول الدكتور شوقي ضيف عن معارف أبي تمام: "وشعر أبي تمام زاخر بما يدل على أنه انقض على معارف عصره انقضاضا حتى تمثلها تمثيلا دقيقا وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق أما التاريخ فيتضح في كثير من جوانب مديحه وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها في الجاهلية والإسلام"[2].

وأما ابن خفاجة الأندلسي فلم يعول كثيرا على الأحداث التاريخية ليأخذ منها ما يتناسب مع تجربته الشعرية كما فعل أبو تمام ولكنه كان كثيرا ما يوظف ألفاظا خاصة بالمرأة مثل الثيب والبكر والعذراء وهي من الألفاظ المحببة إلى النفس البشرية ولذا نراه يكرر ذلك كثيرا في حديثه عن الممدوح ومن ذلك قوله:

قـد أسـبلَ الظلمـاءَ سِـتْراً دونَـهُ وخـــلا بأبكـــارٍ مـــن الأفكـــارِ
صـاحتْ بـه الأيـامُ ترفـعُ صـوتَها فكأنمـــا نادتْـــهُ خلـــفَ جِـــدارِ
دع عنك ثيِّب كُل نُعْمَى والتمِسْ مِـنَحَ ابـنِ إبـراهيمَ فَهْـيَ عَـذَارِ[3]

(١) السابق ص ٢٠٥.
(٢) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول ص ٢٧٦ .
(٣) ديوان ابن خفاجة الأندلسي ص ٣٨.

ويذكر في موضع آخر لفظة العذارى ، وتزف ، وخلف ستور ، وابتسام الثغور وغيرها من الألفاظ التي تدور حول عالم المرأة ولكن الشاعر نقلها إلى ساحة شعر المديح حيث يقول:

تـرى المُـزنَ ثَجَّاجـاً بِهِـمْ مُـتهلِّلاً سماحـةَ أيـدٍ وابتسـام ثُغُـورِ
غيارى على الأيدِي العَذارىَ وإنَّما تُـزَفُّ مـن الكِتمـانِ خلـفَ سُـتورِ[1]

ويقول ابن خفاجة في موضع آخر متحدثا عن الممدوح وما قام به من أعمال تشهد له بالفروسية والشجاعة ولكنه اختار مفردات هذه الصورة من عالم المرأة وفي ذلك يقول:

فـدونكها حسـناءَ لا أنَّ بعلَهَـا قلاهَـا ولكـنْ ربَّ حسـناء تطلَّـقُ
تـروقُ فمـا تـدري الركـابُ أ بلـدةً تـؤُمُّ بهـا أم كوكبـاً يتـألقُ
وتـأرجْ أنفاسـاً وتنـدى غضـارةً فتحسـبُها نـوارةً تتفتـقُ
فخيم بمثوى المجدِ والسعدِ ناظماً على نَحْرِهَا عِقداً من الخيلِ يُنسقُ
تضـيق بـه أنفاسُـها ويَزِيْنُهَـا وأَنْفِـسْ بـه عِلقَـاً يـزينُ وَيخْنِـقُ[2]

جـ- الدين والعقيدة الإسلامية

يعد الدين الإسلامي مصدرا من مصادر الصورة الفنية بما اشتمل عليه من مبادئ وقيم إسلامية لها أثرها في بناء المجتمعات الإسلامية فقد يستلهم الشاعر النص القرآني لما له من أثر عظيم في نفسية متلقي عمله الإبداعي، وينبغي أن يكون الشاعر على وعي كامل بالنص القرآني ليأخذ منه ما يتناسب مع تجربته الآنية ، وقد وجدت في شعر أبي تمام ما يدل على أنه تأثر بالقرآن الكريم وبالدين الإسلامي في عرض تجربته الشعرية ومن دلائل ذلك قوله:

مكـراً بـنى زُكنيـهِ إلا أنَّـهُ وطَـدَ الأسـاسَ علـى شـفيرٍ هـارِ
حـتى إذا مـا اللهُ شـقَّ ضـميرَهُ عـن مسـتكِنِّ الكُفْـرِ والإصْـرَارِ[3]

---

(١) السابق ص ١٨٢ .
(٢) السابق ص ١٨٦ .
(٣) ديوان أبي تمام ج٢ ص١٩٩ .

فالأبيات تحمل معاني مستقاة من القرآن الكريم من مثل قوله :" شفير هار، والله شق ضميره ، والكفر ، فمثل هذه الألفاظ لها مدلولات في العقيدة الإسلامية فقد جاء في القرآن الكريم: "أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"[1] ويتناص أبو تمام مع قصة السامري الواردة في القرآن الكريم وقصة ثمود وفي ذلك يقول:

لَوْ لَمْ يَكِدْ للسامريّ قبيلُهُ ... ما خارَ عِجْلُهُم بغيرِ خُوَارِ
وثمودُ لو لم يُدْهِنُوا في ربِّهم ... لم ترم ناقته بسهم قُدَارِ[2]

والرابط بين قصة السامري والأفشين أن هذا الرجل وقبيله وعشيرته قدر على مخالفة المعتصم مثل السامري الذي أعانه قومه على مخالفة موسى عليه السلام، وكذلك قوم ثمود أعانوا قدار بن سالف على عقر الناقة ومخالفة نبيهم صالح عليه السلام ومن هذه القصيدة يقول أبو تمام:

ولقد شَفىَ الأحشاء من بُرحَائِها ... أن صارَ بابكُ جار مازيّارِ
ثانيهِ في كبدِ السماءِ ولم يكنْ ... لاثنين ثانٍ إذ هُمَا في الغارِ[3]

والشاعر خلال البيتين السابقين يشير إلى فهمه للنصوص القرآنية فقد جمع بين"بابك ومازيار" في نهايتهما المأسوية من القتل والصلب وقد تجاورا في ذلك وهما مذمومان واللذان كان في الغار فهما رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، وقد تجاور في الخير والشبه هنا مستحيل، و ذِكْر الرسول ﷺ وصاحبه في هذا الموضع للدلالة على ثقافة الشاعر الدينية وذِكْر هذه الصورة المحمودة بجانب الصورة المذمومة لعلها طريقة من طرق أبي تمام حيث كان حريصا على الجمع بين المتناقضات وقديما قيل والضد يظهر حسنه الضد.

(١) الآية من سورة التوبة رقم (١٠٩) .
(٢) ديوان أبي تمام ج٢ ص ٢٠٦ .
(٣) ديوان أبي تمام ج ١ ص ٢٠٧ .

وأما ابن خفاجة الأندلس فثقافته الدينية كانت مصدرا من مصادر تكوين بعض صور الممدوح ومن ذلك قوله:

وسخا الكرامُ بما استمدوا منهمُ إنَّ البحـــارَ لمنشـــأ الأمطـــارِ
تنمـــيهمُ الـــدنيا إلى صِـــنهاجة والـــدينُ يُنمـــيهم إلى الأنصـــارِ[1]

ففي أثناء حديث الشاعر عن قوم الممدوح ذكر أنهم ينتمون في الدنيا إلى صنهاجة ولكن حبهم لدينهم وتمسكهم به ومحاربتهم أعداء الإسلام جعلهم ينتمون إلى الأنصار وهم خير صحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا شرف لهم أن ينتموا إلى الأنصار فهم خير من نصروا وأعانوا على الحق وقد وردت ألفاظ الركوع والسجود في قول ابن خفاجة :

طلابـاً لأمـرٍ يركـعُ الـرمحُ عنـدَهُ طـويلاً ويهـوى المشـرفيُّ فيسـجُدُ[2]

وألفاظ الركوع والسجود مستمدة من الإسلام ولكن الشاعر يأتي بها ليرسم صورة يخص فيها الرمح يركع ويسجد ثم يصور الممدوح في القصيدة نفسها فيختار له معان تنبع من الدين الإسلامي وهي السير في طريق الحق واتخاذ التقوى منهجا وعقد المؤتمرات لرفع راية الدين وحراسته من كل معتد أثيم ينتهك حدوده وفي هذا يقول ابن خفاجة :

يســيرُ بــه في الحــقِّ رأي مُســدَّدُ على مَـنْهَجِ التقـوى وعـزمُ مُؤَيَـدُ
فمـا تُرعـدُ الأسـيافُ إلا مهابَـةً لمـــؤتَمِرٍ في اللهِ يَنْهَـــى ويَنْهَـــدُ[3]

ثانيا: عناصر تشكيل الصورة بين الشاعرين

إن أول عنصر من عناصر تشكيل الصورة هو اللفظة الشعرية المنتقاة والمختارة من رصيد الشاعر اللغوي والمنبعثة من مخزونه الثقافي بأبعاده الأربعة وهي التاريخي، والديني، واللغوي، والاجتماعي، وهذه اللفظة الشعرية تأتي مصحوبة بخيال مبدع خلاق قادر على الجمع بين المتناقضات والتأليف

(١) ديوان ابن خفاجة الأندلسي ت د/ عمر فاروق الدقاق ط دار القلم ص ١٠٢ .
(٢) السابق ص ١٩٤
(٣) ديوان ابن خفاجة ص ١٩٦ .

بينها " والخيال الشعري هو الذي يفترض في الصور مواقع أجزائها ويضم الفكرة إلى أختها والخاطرة إلى جارتها وتلتقي الأجزاء على ما بينها من بعد وتناقض ويضم الشكل إلى الشكل والنظير إلى النظير ليتم التجانس بين الكلمات والعبارات والأوزان في ذاتها وبينها وبين معانيها ليؤلف من ذلك خيالا ابتكاريا يبتكر صورا جديدة وتلبي الحياة المشهودة ولا يجوز للتخيل بحال أن يتناول الحقائق ليمسحها ويناقضها ولو فعل ذلك فإن فعله هذا لا يغني فيه حذر"[1] ولكل أديب حرية اختيار القالب الذي تصب فيه التجربة الشعرية فقد تأتي الصورة الشعرية في هيئة تشبيهية أو في شكل استعارة أو كناية وقد تعتد الصورة على التجسيد أو التشخيص وللشاعر كامل الحرية في اختيار الإطار الذي توضع فيه الصورة ، وقد تجتمع هذه الأشكال في صورة واحدة وقد ظهر ذلك جليا خلال التحليل الذي قامت به هذه الدراسة سلفا ولا مناص الآن من عرض هذه الأشكال في صورة موجزة نرصد خلالها عناصر تشكيل الصورة بين الشاعرين أبو تمام وابن خفاجة .

أ- التشبيه بين الشاعرين

إن التشبيه يعد وسيلة من وسائل تشكيل الصورة في الشعر العربي منذ وجد الشعر العربي، ومن يقلب نظره في تراثنا الأدبي يدرك أن الصورة التشبيهية لها أثرها العظيم في بناء القصيدة العربية لأنه يجمع بين أمرين مشتركين في شيء ما، وهذه الصلة بين المشبه والمشبه به تقرب الصورة من متلقي العمل الشعري وقد قال عنه ابن رشيق: "والتشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أن قولهم: "خد كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه"[2].

(١) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر د/ علي علي صبح ص ١٢٦ .

(٢) العمدة لابن رشيق القيرواني ت محمد محي الدين عبد الحميد ط دار الجيل ط الخامسة سنة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م ج ١ ص ٢٨٦.

والتشبيه ليس قاصرا على الجمع بين شيئين اشتركا في عدة صفات دون ربط ذلك بشعور الشاعر وعاطفته وقد " زعم قدامة أن أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد وأنشد في ذلك:

لــه أيطــلا ظــبي وســاقا نعامــة وإرخــاء ســرحان وتقريــب تتفــل

وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هي هي بعينها وأفعال بأفعال هي هي بعينها إلا أنها من حيوان مختلف كما قدمت والأمر كما قال في قرب التشبيه إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ لأنه كتشبيه نفس الشيء الذي ذكره الرماني في تشبيه الحقيقة وإنما حسن التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك "[1] وقد فطن ابن رشيق في رده على قدامة إلى أهمية الجمع بين الأمرين المتباعدين في التشبيه وأن حقيقة التشبيه ليست في الجمع بين أمرين اشتركا في معظم الصفات كما زعم قدامة وإنما في الجمع بين المتباعدين وليس الغرض من التشبيه وضع صورة تجاه الأخرى وإنما التعبير عن شعور المبدع .

إن أبا تمام استغل ما للتشبيه من أثر في نفوس الناس وحقق من خلاله صورا شعرية رائعة فقد عرض صورا حسية للممدوح نكاد نراها ونشاهدها ومن ذلك قوله:

ولكننــا مــن يُوسُــفَ بــن مُحَمَّــدٍ علــى أَمَــلٍ كــالفجْرِ لاحَ مطلُّــهُ
هِـلالُ لَنـا قَـدَ كـادَ يَخْمُـدُ ضَـوؤُهُ وكُنَّــا نــراهُ البــدرَ إذ نسْــتهلُّهُ
هُوَ السَّيفُ عَضْباً قد أرثَّتْ جُفُونُهُ وَضُــيَّعَ حــق كُــلُّ شــيءٍ يَفُلُّــه[2]

فقد صور الشاعر في الأبيات السابقة الممدوح بعدة تشبيهات بينت صفاته الحسية وهي صورة الفجر وقت طلوعه والتشبيه هنا مقيد والتقييد

(١) السابق ص ٢٨٩ .
(٢) ديوان أبي تمام ج٣ ص ١٤٦ .

يضيف للصورة معاني إضافية لا تظهر في النص بدون التقييد فلو قال الشاعر على أمل كالفجر وسكت لأدى ذلك إلى استبطاء هذا الأمل الذي ينتظره الجميع ويرغبون في تحقيقه، ولما أضاف الشاعر هذه اللفظة " لاح مطلعه " أفادت قرب تحقق هذا الأمل ثم جاء البيت الثاني بتشبيه بليغ استوى فيه المشبه مع المشبه به بحيث لم نعد نفرق بين الصورتين صورة الممدوح وصورة الهلال وحذف المسند إليه لأنه معلوم لدى المخاطب وتقدير الكلام "هو هلال" فهو والهلال صنوان ولذا لم يستعن الشاعر بأداة التشبيه، وجاء بأسلوب القصر في قوله "لنا" حيث قصر نور الهلال عليهم وحدهم دون غيرهم ، وعبر بقد، وكاد التي جاءت بمعنى قرب وبالفعل المضارع " يحمد " للدلالة على أن هذا الهلال تعرض لشيء كاد يعرقل مسيرته ويحجب ضوؤه عن الناس وقد ربط الشاعر بين الممدوح والهلال وجعلهما شيئا واحدا وما يحدث لأحدهما يظهر أثره على الآخر، وهذه براعة فنية وقدرة على توظيف الصورة التشبيهية وصبغها بالشعور الإنساني الحي فإذا هي تحس بما يحس به الممدوح من ألم وفرح، وتأتي صورة البدر وهنا أجد الشاعر يتدرج في عرض الصورة فالهلال صورته تختلف عن صورة البدر ولكن اختيار كلا منهما ليظهر في جانب من جوانب الصورة لأن الفكرة تطلبه، ولا يكمل المعنى إلا به، وهو دليل على عبقرية هذا المصور الذي يلتقط الصور ليصل بها إلى معان تنبثق من خلال سياقات الكلام ثم يأتي البيت الثالث بهذا التشبيه "هو السيف" ولم يكتف بهذا فيستقصي صورته لتحمل فكرته ثم جاءت الصفة وهي عضبا وهي وصف بالمصدر، وما حدث لهذا السيف ينصرف إلى الممدوح ولذا جاء البيت التالي ليكمل صورة هذا المشبه في قوله :

فصـــنه فـــإن نرتجـــي في غـــراره شـــفاءً مـــن الأعـــداء يـــوم تســـله

فكما أن السيف يحتاج إلى العناية به والمحافظة عليه وصيانته حتى يأتي اليوم الذي تشتد الحاجة إليه فكذلك يوسف بن محمد ينبغي الرفق به حتى يكون عونا للممدوح على الأعداء .

إن أبا تمام عندما يستخدم الصورة التشبيهية لا يقف بها عند حدود الصور الجزئية وإنما يشعب التشبيه ويستنبط منه معان تخدم الصورة الكلية في النص ومن دلائل ذلك قوله:

مثلتَ لهُ تحتَ الظلامِ بصُورةٍ على البُعْدِ أقنتهُ الحياءَ فصمما
كيوسُفَ لما أن رأى أمرَ ربّه وقدهمّ أن يعرورى الذنب أحجَما
وقال إما أن أغادرَ بعدها عظيما وإما أن أغادرَ أعظُمَا[1]

في الصورة التشبيهية السابقة يعرض الشاعر للحديث عن جند الممدوح ساعة اقتحموا الحرب معه، ورأوا شدتها فحدثتهم أنفسهم بالفرار من المعركة ولكنهم تذكروا حالتهم عندما يعودون إلى الممدوح بعد فرارهم من الحرب فرفضوا هذا الخاطر الذي جال في نفوسهم وصمموا على القتال وحالتهم هذه تشبه حالة يوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز فرأى أمر ربه فارعوى وأحجم عن الذنب واستطراد الشاعر في عرض هذا التشبيه يدل على أنه يصور حالة بحالة، وأنه تناص مع قصة يوسف عليه السلام وأخذ منها ما يتناسب مع الحالة التي يعرضها .

وقد يفصل أبو تمام في الصورة التشبيهية بما يتناسب مع حالة المشبه ومن ذلك قوله من القصيدة السابقة:

هو الليث ليث الغاب بأسا ونجدة وإن كان أحيا منه وجها وأكرما

لقد وصف الشاعر الممدوح بالشجاعة وأنه سار صنو الأسد إلا أنه يختلف عنه بحسن الوجه، وكرم النفس وهذا التفصيل لازم لمثل هذه الصورة.

وأما ابن خفاجة فقد سار في نفس الطريق الذي سلكه أبو تمام فقد نظر للتشبيه نظرة تقترب من فكر أبي تمام لأنه يحتذيه ويقلده في بناء القصيدة ومن ذلك قول ابن خفاجة:

و يا رب جيش للعدو كأنه عباب خضم قد طمى يتدفع

(١) ديوان أبي تمام ج٣ ص ٢٣٩ .

عرضت له والليث دونك جرأة فأجفل إجفال النعامة تجزع

فقد شبه الشاعر جيش العدو بالعباب والمطر الكثير ولم يقف عند هذا الحد وإنما أضاف كلمة خضم وهو البحر الكثير الماء، وأضاف كلمة "طمى "لتناسب ماء البحر والفعل المضارع "يتدفع " للدلالة على كثرة هذا الجيش عددا وعتادا وقد دلل على عظم هذا الجيش بعدة أشياء أضافها للمشبه به ؛لتوحي بعظمة هذا الجيش وقوته وكثرته وتلقي الفزع في روع من يشاهده، ومع كل هذا قال: "عرضت له والليث دونك جرأة " والشاعر يستقصي الصورة التشبيهية ليقول من خلالها ما يتناسب مع تجربته .

والصورة التشبيهية في شعر ابن خفاجة قليلة وذلك لأنه يعول في صوره على الاستعارة والتشخيص والتجسيد أكثر مما يعول على التشبيه .

ب- الصورة الاستعارية بين الشاعرين

إن الصورة الاستعارية أكثر رحابة من الصورة التشبيهية وتتيح للشاعر عرض تجربته في صورة أكثر حيوية وذلك " لقدرتها على الإشارة إلى عناصر خارج السياق الشعري نفسه ومن ثم تصبح أكثر قدرة منه على الإيحاء وإثارة أكبر قدر من التداعي في ذهن المتلقي ... وتبدو أكثر فائدة من التشبيه على الأقل فيما يتصل بمعالجة التجارب وعرض الظواهر التي يحتاج الشاعر إلى التعبير عنها تصويرا"(١).

واستعارات أبو تمام حيرت النقاد القدامى والمحدثين فمن القدامى الآمدي، والتبريزي، ومن المحدثين محمد مندور، وشوقي ضيف، "وخلاصة القول في تصوير أبي تمام هي أن الشاعر كان مغربا في تصويره ، وأنه عني بجانب التشخيص في هذا التصوير ونقل المعنويات إلى ماديات وليس ذلك في نظري مما يعاب به فنه وأن من عاب هذا الفن من النقاد نظر إليه على أنه استعارة وقاسها بمقياس القرب والمناسبة وإن لم يكن هذا المقياس مرضيا من جميع

(١) الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد د/ عبد الله التطاوي ص ٣٢ .

النقاد وحتى يتحقق الشمول في النظرة كان يجب تناول الصورة الشعرية كلها وعدم الاقتصار على إحدى الأدوات التي استخدمت فيها"[١].

ومن صور الاستعارة التي جمعت بين التشبيه والتشخيص قول أبي تمام:

أبا سعيدٍ تلاقتْ عندكَ النِّعمُ ... فأنتَ طودُ لنا مُنجٍ ومُعتَصَمُ
لا زالَ جُودُك يخشى البخلُ صولتَه ... وزالَ عودُكَ تسقِى رَوْضَه الدِّيَمُ
أشرفتُ منكَ على بحرِ الغنَى ويدِي ... يَجُولُ في مستواها الفقرُ والعدمُ
أحرمتُ دونَكَ خوفَ النائباتِ فما ... شككتُ إذ قُمْتَ دوني أنكَ الحرمُ[٢]

إن أبا تمام يستنفر القارئ بجودة فنه وبمذهبه الجديد فهو مغرم بالتصوير يرصع شعره به ويزينه مع اعتماده على الفكرة المعروضة في ثوب العاطفة لتتمكن من الولوج إلى قلب وعقل متلقي عمله الفني فقد جعل النعم وهي أشياء غير مشاهدة في صورة تتحرك وتتزاحم لتتلاقى عند ممدوحه ولذا قال: "عندك" وفي هذا تخصيص واصطفاء لهذا الممدوح الذي تتسابق النعم وتجتمع في رحابه ثم يأتي التشبيه في قوله: "فأنت طود لنا" مع أسلوب القصر في قوله: "لنا" الذي تكرر مرتين متجاورتين وأضاف لهذا الجبل صفتين هما: النجاة والاعتصام ، ويستمر التجسيد في الصورة فالبخل يخشى من سطوة جود الممدوح وتتكرر "لا زال" مرتين في البيت مع حذف لا في قوله: "وزال عودك يسقي روضة الديم" وهذه استعارة رائعة ثم جاءت الاستعارة في قوله :" بحر الغنى" فجعل للغنى بحرا، وجاءت الكناية في قوله: "ويدي يجول في مستواها الفقر والغنى" وجعل الشاعر للمدح ركنا في قوله "ركن المدح" ويختتم الشاعر لوحته السابقة بهذا التشبيه "أنك الحرم " ولو دققنا النظر في الصورة السابقة لوجدناها تعتمد على الصور الحسية فالطود والعود والروضة والمطر والبحر والحرم كلها مفردات نراها بحاسة البصر ونشاهد حركية الصورة في قوله:

(١) الشعراء المحدثون في العصر العباسي د/ العربي حسن درويش ص ١٣٥.
(٢) ديوان أبي تمام ج٣ ص ٢٤٧.

"تلاقت، وصولته، ويجول، وخوف النائبات، وهكذا نرى أن الفن "يجسم آراءنا ومشاعرنا بأشكال حسية توحي بها نافذا من وحدة الوجود التي عن طريقها نرى ذواتنا في الشجر والمطر والطيب والصوت على هيئة خاصة من الجمال والقبح "[1].

وأما ابن خفاجة الأندلسي فقد سار في رحاب أبي تمام حيث حرص على الصورة الاستعارية بما فيها من تجسيد وتشخيص ورسم خلالها صورا عديدة للممدوح ومن ذلك قوله:

ولما انتحى ذكرُ الأميرِ استخفَّهُ ... فخفضَ من لحنِ الصهيلِ ورقَّعَا
حنيناً إلى الملكِ الأغرِ مرداداً ... وشجواً على المسرَى القِصِّي مُرجعَا
فمن حبِّ إبراهيم أعربَ صاهلاً ... وفي نصرِ إبراهيمَ كرَّ تشيعَا
ملكُ تباهى الحمدُ وشياً مذهَّبَا ... به وتراءَى المجدُ تاجاً مُرصَّعَا
غشيتُ به أندى من المزنِ راحةً ... وأطيبَ أفياءً وأمرعَ مرتعَا
طمى الجودُ في يمناهُ بحراً وإنما ... تدفقَ في أرجائِهَا فتدفعَا
وأعدى نداهُ الغيثَ فانهلَّ واكِفاً ... وحسبُكَ من سُقْيَا أن انسجمَا مَعَا[2]

عقد ابن خفاجة في هذه الصورة صلة بين الممدوح وفرسه فقد أحب هذا الحيوان صاحبه وانعقدت الصلة بينهما وعندما سمع الفرس ذكر الممدوح استخفه الطرب وخفض من صهيله وحن إلى هذا الملك وأعلن عن حبه له في صورة الصهيل وقد أعرب الفرس عن حبه لصاحبه في ساحات المعارك الحربية فكرَّ على الأعداء تأييدا لصاحبه ثم جسد الشاعر الحمد في صورة إنسانية حيث تباهى بالممدوح وصور المجد في هيئة تاج مرصع بالجواهر وهذه الصورة تعد تطويرا للصورة القديمة الواردة في شعر عنترة بن شداد الذي تحدث عن العلاقة بينه وبين فرسه وذلك في قول:

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إليَّ بعبرة وتحمحم

(١) مجلة المعرفة الصورة في النقد الأوربي د/ عبد القادر الرباعي ص ٤٤ .
(٢) ديوان ابن خفاجة الأندلسي ص ٥٨ .

وقد أخذ هذا المعنى ابن خفاجة وأضاف إليه وهذه الطريقة موجودة عند أبي تمام فقد تابع عنترة في قوله هذا فقال: [البسيط]

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه لخر يلثم منه موطئ القدم

واتبعه البحتري فقال: [الكامل]

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر

واتبعه المتنبي فقال:

لو تعقل الشجر التي قابلتها مدت إليك الأغصانا[1]

ومما سبق ندرك أن ابن خفاجة تابع المشارقة في بناء الاستعارة فسار على منوالهم واحتذى طريقتهم وأضاف إليها ونماها فأتت أكلها .

جـ- البديع بين الشاعرين

قضية البديع في شعر أبي تمام من القضايا التي تناولها النقاد بالدراسة والتمحيص وتتلخص هذه القضية في أن أبا تمام وشى شعره بالبديع ، وتابع في ذلك مسلم بن الوليد ولكن أبا تمام أفرط في استخدام ألوان البديع وقصدها قصدا وتعمد الاتيان بها ؛ولذا قال عنه القاضي الجرجاني :" وما تكاد قصيدة من شعره تسلم من أبيات ضعيفة وأخرى غثة لا سيما إذا طلب البديع ، وتتبع العويص"[2] وهذا النص يدل على أن أبا تمام إذا طلب البديع فهو متكلف لم يجر مع طبعه وإنما يرغب في صنعة الشعر صنعة تذهب بجماله ولما أنشد أبو تمام هذا البيت :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضا

(١) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ت د/ حفني محمد شرف ط الملس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٤٨٨ .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص ٦٨ .

قال صاحب الوساطة "بلغنا أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي سمعه ينشد هذا البيت فقال له: أن يا هذا لقد شققت على نفسك إن الشعر لأقرب مما تظن"(١).

ومن الآراء التي أراها جديرة بالوقوف حيالها حول وجود البديع في شعر أبي تمام قول ابن المعتز " إن حبيب بن اوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرغ فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف"(٢) وقد قسم أحد النقاد البديع إلى ثلاثة أنواع وهي: البديع التصويري، والبديع المعنوي، والبديع المخترع ، وقد خص هذا الأخير بأن نسبه إلى أبي تمام فقال" أما البديع المخترع فهو الذي لم يعرفه الأوائل ،وإنما هو فن اخترعه العباسيون وعلى رأسهم أبو تمام نتيجة لتأثرهم بالثقافة الإغريقية التي بدأت تؤثر في الحياة العربية تأثيرا واضحا بعد فتنة الأمين والمأمون وهو مذهب قائم على الترف العقلي وإخضاع الشعر للفلسفة وعلم الكلام وقصر هذه الفنون العقلية وإخالها في الشعر وهو المذهب الذي أسماه الجاحظ كما جاء في بديع ابن المعتز المذهب الكلامي"(٣) ولن أقف طويلا عند قضية البديع في شعر أبي تمام فقد تناولها النقاد بالدراسة (٤) وخلاصة هذه القضية أن أبا تمام وظف البديع في خدمة التجربة فأصاب في

(١) السابق ص ٧٠ .

(٢) البديع لابن المعتز ت عرفان مطرجي ط مؤسسة الكتب الثقافية ط الأولى سنة ١٤٣٣هـ ٢٠١٢ م ص ٩ .

(٣) شاعر فن البديع الأول مسلم بن الوليد د/ عبد القادر الرباعي ط عالم التب الحديث سنة ٢٠١٥ م ص ٤٢٥ .

(٤) ينظر في ذلك البديع لابن المعتز ، والوساطة للقاضي الجرجاني ، والموازنة للآمدي، والعمدة لابن رشيق القيرواني ، وتاريخ الشعر العربي للبهبيتي ، والنقد المنهجي عند العرب لمحمد مندور ، والشعراء المحدثون في العصر العباسي للعربي حسن درويش، والفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف ، وأبو تمام وقضية التجديد في الشعر لعبده بدوي.

ذلك وجانب الصواب عندما تكلف البديع واغتصبه غصبا فوقف النقاد في وجهه وقوموا تجربته، وبينوا مواطن الإصابة والخطأ ،وسأعرض لدور البديع في تكوين صورة الممدوح بين أبي تمام وابن خفاجة في السطور الآتية:

الجناس بين الشاعرين:

إن الجناس ليس حلية لفظية حتى يتعمده الشاعر ليصب من خلاله تجاربه الشعرية وإنما الجناس: "المقبول هو الذي يضيف جديدا إلى المعنى ولا يكون على حساب الصورة الأدبية فهو تعبير فني يكسب الكلام قيما جمالية بما يضيفه إلى النسق اللغوي من انسجام وتناسب في البناء الصوتي يثري المعنى ويغني الصياغة اللغوية فليس الجناس تلاعبا بالألفاظ أو مهارة في صناعة الجمل أو محسنا خارجيا إضافيا وإنما هو أسلوب فني في التعبير يضيف إلى الفكرة ويزيد في جمال العبارة"(١).

ومن الصور التي عُني أبو تمام فيها بالبديع قول أبي تمام :

ثَلِمـــتَهُم بالمشـــرفِيّ وقلَّمـــا ... تَـــثلَّمَ عِـــزُّ القـــومِ إلا تهـــدَّمَا
قَطَعْـتَ بنـانَ الكفـرِ مِـنْهُمْ بِمَيْمَـذٍ ... أتبعتهـــا بـــالرُّومِ كفَّـــاً ومِعْصَـــمَا
وكـم جبـلٍ بالبـذِّ مـنهمْ هدمْتَـه ... وغـــاوٍ غَـــوَى حَلَّمْتَـــه لـــو تحلَّمـــا
ومُقتبَـــلٍ حلـــتْ ســـيوفُكَ رأسَـــهُ ... ثَغَامـاً ولـولا وقعُهـا كـان عِظْلِمَـا(٢)

فأبو تمام في هذه الصورة يتكلف المجيء بالجناس في قوله: "ثلمتهم، تثلم، وغاو، وغوى، وحلمته، وتحلم، فأبو تمام يعز عليه أن يقول بيتا من الشعر غير محلى بالجناس وفي هذا يقول الآمدي: "فاعتمده الطائي وجعله غرضه وبنى أكثر شعره عليه فلو كان قلل منه واقتصر على مثل قوله:

يا ربع لو ربعوا على ابن هموم، وقوله: أرامة كنت مألف كل ريم، وقوله: يا بعد غاية دمع العين إن بعدوا، وأشباه هذا من الألفاظ المتجانسة المستعذبة

(١) دراسات في المعاني والبديع د/ عبد الفتاح عثمان ص ١٧٣ .
(٢) ديوان ابي تمام ج٣ ص ٢٣٧ .

اللائقة بالمعنى لكان قد أتى على الغرض وتخلص من الهجنة والعيب"[١]

ويتحدث أبو تمام عن الممدوح فيقول:

إذا أنتَ وجهتَ الرِّكابَ لقصدِهِ تبيَّنتَ طعمَ الماءِ ذُو أنتَ شارِبُهْ
جديرُ بأنْ يَستحي اللهَ بادِيا به ثم يَستحي النَّدى ويُراقِبُهْ
سَمَا للعُلَى من جانبيْهَا كِليهمَا سُمُوَّ عُبَا بِ الماءِ جاشتْ غوارِبُهْ
فنوَّلَ حتى لم يجدْ من يُنِيلُهْ وحاربَ حتى لم يجدْ من يحاربُهْ[٢]

فقد جاء الجناس في قوله: "يستحي، ويستحي، وسما، وسمو، ولم يجد، ولم يجد، وهذا يدل على أن أبا تمام كان حريصا على إيراد الجناس سواء وافق الصواب أم جانبه.

وقد يوظف الجناس في موضعه من الكلام فلا يمكن الاستغناء عنه وذلك لأنه أضاف معنى ولا يصح استبداله بغيره ومن ذلك قول أبي تمام :

إني وإن كانَ قومُ ما لهُمْ سببُ إلا قضاءُ كفاهُمْ دوني السَّبَبَا
وكنتُ أعلمُ عِلماً لا كِفاءَ لَهُ أن ليسَ كُلُّ قِطارٍ يُنبِتُ العُشُبَا[٣]

وأما ابن خفاجة فقد احتذى طريقة أبي تمام إذ حرص على تنميق عباراته بالبديع" ولكنه مع هذا غير ظاهر التكلف كأن ذلك جاء عفوا أو كأنه سليقة له وهو على ما يظهر من شعره من المتشيعين لطريقة أبي تمام المعجبين بها ..."[٤].

إن الجناس قد يأتي في شعر ابن خفاجة عفو الخاطر دون تكلف وهذا ما انماز به عن أبي تمام ومن ذلك قوله:

حلتْ أواصِرُهُ بهِ من عَامِرٍ في حيثُ حلَّتْ مُقْلَةُ من مَحْجِرِ

(١) الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي ت السيد احمد صقر ط الرابع ط دار المعارف ص ٢٨٥.
(٢) ديوان أبي تمام ج١ ص ٢٢٦ .
(٣) ديوان ابي تمام ج١ ص ٢٣٦.
(٤) بلاغة العرب في الأندلس د/ أحمد ضيف ص ٢١٥ .

طَلْــقُ الجبــينِ كــأنني مُســتقبِلُ بلقائــهِ وجــهَ الشــبابِ المُــدْبِرِ
رطـبُ الكـلامِ علـى سَمَـاعِ جليسِـهِ فكــأنَّ في فِيْــهِ لســانَ مُبَشِّــرِ[1]

وقد تغلب الصنعة أحيانا طبع ابن خفاجة فيأتي بالجناس متكلفا تمجه الأذن من مثل قوله:

ويكفِــــي ويكفــــلُ في حالــــةٍ فيبــــني المعــــالِي كَفَــــى أوكفــــل
ويلزمُــــهُ النصــــرُ حبــــاً لَــــهُ فــإنْ ســارَ ســارَ وإن حــلَّ حــل

فقد جانس بين قوله: "يكفي، ويكفل، وكفى وكفل، وسار وسار وحل وحلَّ، وقد تكلف ابن خفاجة في الإتيان بهذا الجناس.

وقد يأتي الجناس مناسبا للمعنى لأنه يطلبه فمن ذلك قوله:

ولم نــدري مــا عقلــت خيلــه أشـكوى الـوجى أم شـكاة الوجـل

ومما سبق نتأكد أن ابن خفاجة قلد أبا تمام في ميله إلى البديع ولكنه لم يعتن بالصنعة البديعية كما اعتنى بها أبو تمام وأنه لم يسرف في العناية بالبديع كما أسرف أبو تمام.

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٥١ .

الخاتمة

الحمد لله على نعمائه والشكر له على آلائه ، والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد ،،،

ـ فقد تميزت صورة الممدوح في شعر أبي تمام باستقصاء عناصر الفكرة ، وربطها بشعور المبدع .

ـ الصورة التشبيهية في شعر ابن خفاجة تعتمد على الإيحاء .

ـ الصورة التشبيهية في شعر أبي تمام تعتمد على التفصيل وقد تأثرت بصنعته التي مارسها وهو في ميعة الصبا .

ـ جسدت صورة الممدوح عند أبي تمام القيم الخلقية الموروثة عن العرب وهي الشجاعة والكرم والمروءة فهي تعد لوحات اجتماعية .

ـ لم تخرج صورة الممدوح عند ابن خفاجة عن القيم العربية على الرغم من البيئة المترفة التي عاش فيها ابن خفاجة .

ـ اعتمد أبو تمام على البديع في تشكيل صوره وكلما أغرق في استجلاب البديع أدى إلى غموضها .

ـ اعتمد ابن خفاجة على البديع مقلدا أبا تمام ولكنه لم يسرف في ذلك فجاءت صوره مناسبة لعصره تحكي ظرفه وحبه للجمال الذي كان يراه في كل شيء من حوله .

ـ تأثر أبو تمام بالصورة القديمة ولكنه أضاف إليها من عقله وفكره حتى خرجت شيئا جديدا .

ـ قلد ابن خفاجة سلفه أبا تمام في صورة الممدوح الشجاع ولم يخرجا معا عن الإطار الذي رسمته البيئة العربية .

ـ أسرف أبو تمام في تطريز أبياته بالجناس وبتشخيص عناصر الطبيعة وتجسيدها في صور تدل على عقلية فذة فقهت الألفاظ العربية ، ونجحت في نظمها بإتقان وعناية .

ـ بنى ابن خفاجة صوره ببراعة إذ عرضها في معارض مختلفة جمعت بين الاستعارة والتشبيه والكناية والتشخيص والتجسيد .

ـ أبو تمام يفكر بالشعر ويمزج بين العقل والشعور والعاطفة ولذا يحتاج إلى قارئ مثقف حتى يدرك أبعاد تجربته الشعرية .

ـ ابن خفاجة شاعر مطبوع لا يجهد نفسه في بناء قصائده وإن حرص على تجويدها لتخرج متناسبة مع ذوقه وحياته المترفة وبيئته التي استمد منها معظم صوره .

ثبت المصادر والمراجع

١. الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د/ عبد القادر القط ط مكتبة الشباب سنة ١٩٨٨م.
٢. أخبار أبي تمام للصولي ت خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام و نظير الإسلام الهندي قدم له الدكتور / أحمد أمين ط دار المعارف الجديدة بيروت ط الثالثة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
٣. الأدب الأندلسي التطور والتجديد د/ محمد عبد المنعم خفاجي ط دار الجيل.
٤. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ت السيد محمد رشيد رضا ط الخامسة ط دار المنار سنة ١٣٧٢هـ .
٥. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني طبعة مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر تصحيح الأستاذ الشيخ أحمد الشنقيطي ج١٥.
٦. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣ م ت إبراهيم الأبياري ط دار الكتاب المصري القاهرة دار الكتاب اللبناني بيروت ج١.
٧. بلاغة العرب في الأندلس د/ أحمد ضيف ط دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس .
٨. بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق تأليف الدكتور كامل حسن البصير ط مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨.
٩. البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر د/ علي علي صبح ط المكتبة الأزهرية للتراث سنة ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م ص ١١.
١٠. تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ت مصطفى حجازي راجعه عبد الستار أحمد فراج ط سنة ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣م ط مطبعة حكومة الكويت ج١٢.

١١. تاريخ الأدب العربي د/ عمر فروخ ط دار العلم للملايين ط الرابعة سنة ١٩٨١ م ج ٥.
١٢. تاريخ بغداد ت الدكتور / بشار عواد معروف ط دار الغرب الإسلامي ط الأولى سنة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١ م ج ٩.
١٣. تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ت د/ حفني محمد شرف ط الملس الأعلى للشئون الإسلامية.
١٤. الحيوان للجاحظ ت وشرح عبد السلام محمد هارون ط الثانية ج ٣ ط شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
١٥. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ط مكتبة الخانكي ط الثالثة سنة ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م.
١٦. ديوان ابن خفاجة شرحه وضبط نصوصه وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ط دار القلم بيروت لبنان.
١٧. ديوان ابن خفاجة ت السيد مصطفى غازي المدرس بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية ط دار المعارف سنة ١٩٦٠ م بالإسكندرية.
١٨. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ت محمد عبه عزام المدرس بمعهد اللغات الشرقية بجامعة لندن ط الرابعة ط دار المعارف ج٣ .
١٩. الديوان لمؤلفيه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني ط دار الشعب ط الرابعة.
٢٠. شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم دراسة وتحقيق د/ سعود محمود عبد الجابر جامعة قطر ط الأولى سنة ١٤٠٤ هـ ١٩٤٨م ط مؤسسة الرسالة.
٢١. الشعر والشعراء في العصر العباسي د/ مصطفى الشكعة ط دار العلم للملايين.
٢٢. الشعراء المحدثون في العصر العباسي د/ العربي حسن درويش ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٩ م ص ١٣١ .

٢٣. الصلة لابن بشكوال القسم الأول ط الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م.
٢٤. الصناعتين لأبي هلال العسكري ت الدكتور مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
٢٥. الصورة الأدبية في القرآن الكريم د/ صلاح الدين عبد التواب ط الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ط الأولى سنة ١٩٩٥م .
٢٦. الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد د/ عبدالله التطاوي ط دار غريب سنة ٢٠٠٢م.
٢٧. الصورة الفنية في شوقيات حافظ دراسة تنظيرية تطبيقية د/ عبد اللطيف محمد السيد الحديدي ط الأولى سنة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
٢٨. الصورة في النقد الأدبي د/ عبد القادر الرباعي مجلة المعرفة الدمشقية عدد ٢٠٤.
٢٩. طبقات الشعراء لابن المعتز ت عبد الستار أحمد فراج ط دار المعارف ص ٢٨٣.
٣٠. العمدة لابن رشيق القيرواني ت محمد محي الدين عبد الحميد ط دار الجيل ط الخامسة سنة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م ج ١.
٣١. عن بناء القصيدة العربية القصيدة العربية الحديثة د/ علي عشري زايد ط الرابعة سنة ١٤١٦هـ الناشر مكتبة الشباب القاهرة.
٣٢. عيار الشعر طباطبا العلوي شرح وتحقيق عباس عبد الستار ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
٣٣. الفن ومذاهبه في الشعر العربي د/ شوقي ضيف ط دار المعارف سنة ١٩٤٣م ص ١٠٩.
٣٤. فنية قصيدة المدح والرؤيا الدينية عند أبي تمام " فتح عمورية نموذجا " د/ أحمد قتيبة يونس مجلة دراسات موصلية العدد السادس عشر ربيع الثاني ١٤٢٨هـ آيار ٢٠٠٧ م.

٣٥. في الشعر العباسي نحو منهج جديد د يوسف خليف ط دار غريب.
٣٦. قطوف من ثمار الأدب نصوص من العصر الجاهلي إعداد نخبة من أساتذة قسم الأدب والنقد في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية ط ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.
٣٧. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان للفتح بن خاقان ط مصر سنة ١٢ ٨٤ هـ ١٨٦٦م.
٣٨. المثل السائر لابن الأثير قدمه وعلق عليه د/ أحمد الحوفي ود/ بدوي طبانة القسم الثاني ط دار نهضة مصر ط الثانية .
٣٩. مجلة الرسالة المجلد الثاني السنة الثانية العدد ٦٤ بتاريخ ٢٤ /٩ / ١٩٣٤ م
٤٠. من تفسير الشعراوي لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ج١٤.
٤١. الموازنة بين الشعراء تأليف زكي مبارك ط الثالثة سنة ١٣٩٣ هـ ط مكتبة مصطفى البابي الحلبي.
٤٢. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري ت د/ إحسان عباس ط دار صادر بيروت ج١.
٤٣. النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ص ٤١٧.
٤٤. وفيات الأعيان لابن خلكان ت د/ إحسان عباس المجلد الثاني ط دار صادر بيروت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٦١٤
التمهيد (دوافع المدح بين الشاعرين)	٦١٦
المبحث الأول (ملامح من حياة الشاعرين)	٦١٩-٦٢٦
المبحث الثاني (الصورة بين القدامى والمحدثين)	٦٢٧-٦٣٧
المبحث الثالث (صورة الممدوح بين أبي تمام وابن خفاجة)	٦٣٨-٦٧٦
أولا: صورة الممدوح الكريم بين الشاعرين	٦٣٨
ثانيا: صورة الممدوح الشجاع بين الشاعرين	٦٥١
ثالثا: صورة الممدوح الحسية والمعنوية بين الشاعرين	٦٦١
رابعا: صورة الممدوح بنصرة دين الله بين الشاعرين	٦٧٠
المبحث الرابع (الموازنة بين الشاعرين)	٦٧٧-٦٩٥
الخاتمة	٦٩٦
ثبت المصادر والمراجع	٦٩٨
فهرس الموضوعات	٧٠٢